الحُلم الأخير

طبع في مصر

الحُلم الأخير

رواية

سمعان محجوب

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2019

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

2019 – 1440

رقم الإيداع: 13816 / 2019

الترقيم الدولي: 1 – 346 – 838 – 977 – 978

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك- الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

الإهداء

إلى أمي الغالية وأبي الغالي.

إلى زوجتي الغالية عائشة التي أهدتني المشاغبة (آمال).

وأخواتي الجميلات وأخي المهندس الرائع دومًا.

إلى أصدقائي وزملائي وتلاميذي وإلى كل القابضين على جمر القضية ورفاق النضال.

إلى كل المهمشين في كل بقاع الأرض.

إلى الحركة الشعبية لتحرير السودان – شمال.

إلى الشعب السوداني البطل الذي ينتفض من أجل الحرية والكرامة.

إلى أستاذي الفاضل الفنان التشكيلي والروائي العظيم/ جون موسى عثمان علي.

إلى الراحل المقيم دومًا في أستاذي الفاضل/ ياسر جون لوري.

إلى نرجس في قبرها.. قبل أن يوارينا الأجل.

إلى كل امرأة على حافة الضياع.. وإلى النساء اللائي يعانين كل صنوف القهر.

إلى كل من شاركني وساعدني في إخراج هذا الحلم.

منظمة المرأة الإنسانية للإغاثة والتنمية بجنوب السودان.

إليكم جميعًا إلى أن نتحقق أحلامنا.

في منتصف نهار الجمعة من شهر يونيو مطلع التسعينيات كانت السماء ملبدة بالغيوم وقد حجبت السُحب ضوء الشمس والرعود والبروق تظهر وتختفي في السماء بين الفينة والأخرى. والبرق بضوئه الساطع يظهر في السماء بشكلٍ مفاجئ والرعد بصوته العالي والأجواء باتت تنذر بالمطر الغزير.

جلست آمال في (راكوبتها) الكبيرة وسط منزلها بحي الكمبو روتو وهي ترتدي فستانها السمائي اللون والخفيف لتضفر شعر ابنتها رياح.

كانت الطفلة كفاح تمسك بقطعة خبز يابسة وهي عارية الصدر وحافية القدمين تقف بجانبها أي بجانب أمها التي كانت تجلس وسط (العنقريب) وهي تضفر شعر شقيقتها الكبرى رياح التي كانت تستعد للذهاب مع والدها لزيارة عمها ود البلولة في قرية ود دلدوم أم جر، بسبب إصابته بضيق التنفس الحاد جرّاء عمله في النظافة زهاء عشرين عام.

وقفت كفاح و بدأت تسأل أمها عن مكان السكر وبنبرتها الطفولية وإلحاحها الشديد أزعجت أمها بالسؤال عن السكر:

- يا أمي وينو السكر الجابو أبوي امبارح عشان نحشي بيهو العيشة؟!

رفعت أمها عينها وبنظرة صارمة تحوي بأنها ستضرب كفاح بلا رأفة..

صمتت برهة ثم قالت:

- يا بت امشي من هنا قبال ما اقبل عليكي وافنيك بالشبشب دا.

وصبت جام غضبها عليها:

- امشي من هنا طيري شوف عاملة لي كيف بشعرك المقرقد زي حق أبوكي دا... امشي من هنا ونضيفي نخراتك من العفن الفوقو دا وخلي التن تحميكي..

طيري..

لبثت كفاح بجانبها ولم تستطع أمها أن تحتمل وقفتها بالقرب منها وضربتها ضربة قوية بيدها على ظهرها. كادت كفاح أن تقع على الأرض، وسقطت قطعة الخبز من فمها وصرخت بأعلى صوت حتى سمع الجيران ورفعوا رؤوسهم فوق الحائط القصير المبني (بالجالوص) ليعرفوا ما جرى لكفاح، لأنهم كانوا يحبونها لأنها لم تكن ترفض أي طلب لهم لإرسالها لتبتاع لهم شيئًا من دكاكين الحي أو من الجيران. لذلك لم تكن نوال جارتهم لتقبل ما يحدث للطفلة كفاح.

- سجمي يا آمال كاتلة البت فوق كم..

ومالك قال خوفتيني معاك مالا البت عملت شنو قدر دا.

ردت آمال قائلة:

- تقولي شنو يا نوال غير مرقة الروح.. شوية سكر خاتها لناس التومة قالن جايني بعد الصلاة قلت نشرب بيهو الجبنة ونخت الحنة.. والبت بتجنني قالت دايرة تحشي بيهو العيشة.. عيشة .. عيشة شن تطير

عيشتا، وقاطعتها نوال التي كانت تقف على الحائط الذي يفصل بينهما وعجين (الكسرة) ظاهر على يدها لأنها تركت

(العواسة) لتعرف ما يجري في بيت الجيران.

واصلت في عتابها لآمال:

– لكن ما تديها بتسوي شنو معلقة سكر.. بالغتي يا آمال.. طولي روحك شوية.

ردت آمال وهي تمسك بالمشط بيدها اليمنى وتضع يدها اليسرى على رأس رياح وهي تتحدث مع جارتها:

– من الصباح مجناني و سجم الرماد التاني الأسمو طارق أبوهم طلع من صباح الرحمن ما خلى لينا ولا مليم وأنا لي كم يوم قاعدة في البيت مافي شغل بعد الكشة الأخيرة الحصلت لينا من البوليس..

لكن عملت ليهم قرقوش بالسكر ذاتو لمن فضل حبة من السكر، خوفي ما يكفينا ذاتو لما يجو النسوان وما يلقو حاجة وبعدين أمشي وين منهن ومن نقنقتن يشيلن حالي في الحلة ويشربن بي الجبنة.

كان طارق زوجها الذي خرج من الصباح و لم يترك لهم شيئًا يعمل مدرسًا لسنوات طويلة في مدرسة الامتداد بعد تخرجه في معهد إعداد المعلمين، إلا أنه أُحيل للصالح العام في مطلع التسعينيات لآرائه

السياسية المناوئة للتنظيم الإسلامي المتشدد الذي كان يحكم البلاد، بعد أنْ نفذ انقلابًا عسكريًا أطاح فيه بحكومة ديمقراطية كانت تحكم البلاد.

ولخلافه الحاد مع مدير مدرسة الامتداد الجديد في طريقته الاستعلائية في التعامل مع المعلمين وفي إدارة المدرسة وتسيير شؤونها. كان طارق كغيره من النفر الكريم الذين أُحيلوا للصالح العالم من مؤسسات التعليم لعدم انتمائهم لتنظيم الإصلاح الإسلامي أو لعدم إظهارهم الولاء للتنظيم، مما جعل معظمهم يعترض للاعتقالات والملاحقات الأمنية المستمرة ويُحال إلى الصالح العام أو إلى المعاش الإجباري في سن مبكرة، واستبدالهم بموظفين ينتمون إلى التنظيم. أو إنهاء خدمته بأي طريقة ربما لا يحصل فيها على فوائد ما بعد الخدمة.

رغم أنّ طارق كان من الكفاءات العلمية المشهودة لها بتجردها ونزاهتها إلا أنه أُحيل أيضًا للصالح العام لينضم إلى الأعداد الكبيرة من عمال السكة الحديد، الموانئ، الشركات، المصانع، الوزارات وهيئات الدولة المختلفة للصالح العام.

كانت ملاحقات رجال المن لا تتوقف عنهم . مما جعل معظم الكفاءات العلمية والأدبية والفنية والتقنية تهاجر خارج البلاد، والبعض الآخر يترك العمل في مجال تخصصه ويعمل في وظائف أخرى تجنبه مخاطر آرائه، وحتى لا يتعرض للاعتقالات كطارق الذي كان يقضي أشهرًا عدة في المعتقلات يسأم ألوان العذاب.

لم يفلح المعلمون في استرداد حقوقهم المسلوبة للقبضة الأمنية المتشددة لأجهزة الأمن والانتشار الكثيف للعملاء السريين في كل مكان، بالإضافة لحل النقابات التي كانت تمثل صوت من لا صوت له. لذا استسلم طارق وأفتتح محلًا لتصليح الساعات قُبالة الجامع الكبير في سوق الله أكبر لإجادته هذه المهنة، لتوفير ما يكفي احتياجات أسرته الكبيرة والتي تتكون من زوجته آمال التي أحباها من صباه إلى أن تزوج بها، وأبنائه الستة كمال ووليد ورياح وصباح وكفاح والتن.

وحتى يرتاح من الملاحقات المستمرة لأجهزة الأمن التي كانت ترصده كثيرًا نتيجة لنشاطه وسط المعلمين.

طلبت نوال وهي ما زالت تقف على الحائط من آمال أن تسمح لكفاح أن تأتي وتلعب مع صديقتها ثريا، وقبلت آمال طلبها ولكنها اشترطت أن تستحم كفاح ثم تذهب.

ونادت آمال على ابنتها الأخرى التن..

- يا التن.. التن.. لم تجب لأنها كانت مشغولة في المطبخ تغسل الأواني و ترتب بعض الأشياء ونادتها مرة أخرى..

- ألتن يا التن، إنتي ما سامعة والا أقوم عليكي إنتي التانية كمان..

- تعالي حمي أختك دي عشان تمشي لناس نوال ونرتاح منها.. و من جوطتا.

جاءت التن مسرعة وتركت ما كانت تقوم به من أعمال نظافة في البيت وغسيل الأواني، لأنها تذكرت كيف ضُرِبت بالأمس بعد أن تأخرت في (درس العصر) بمدرسة الهدى الحكومية للبنات مع صديقتها نورة.

وقفت التن على مسافة قريبة من مكان جلوس أمها حتى لا تستقبل صفعة جديدة على وجهها. وفي خوف وقفت لتستمع إلى ما تطلبه أمها منها.

و قالت أمها وهي تحني رأسها وتمسك بكلتا يديها شعر ابنتها رياح:

قلت ليكي يا التن امشي حممي أختكِ دي.. شيلي الصابون والليفة من فوق الحيطة التانية بتاع الحمام واديعكيها كويس ونضيفي ليها أضنينا ديل.

انصرفتا متجهتان إلى الحمام، وتركتا والدتهما آمال تضفر الشعر لرياح وفي انتظار عودة والدهم حاج طارق.

أحضرت التن الصابون والليفة والماء بالجردل ووضعت (الطشت) ونادت كفاح ودخلتا الحمام وصارت تنزع ثياب أختها، وما أن بدأت بصب الماء عليها بدأت كفاح بالبكاء مجددًا خوفًا من الماء البارد. إلا أنّ التن أكملت ما طُلِب منها بسرعة ولفت أختها بقطعة بشكير وحملتها إلى الغرفة.

بدأ رزاز المطر يتساقط فنادت آمال على بناتها مجددًا حتى تجمعن الأغراض والأشياء من فناء البيت.

– يا التن يلا تعالن شيلن الحاجات من الحوش المطرة دايرة تصب..

ثم التفتت إلى رياح وهي تلملم معدات المشاط من مشط وخُلال وزيت كراكر و(باندات) ربط الشعر.

– قومي يا رياح أنا ذاتي خلصت ليكي شعرك . قومي شيلي الدوكة من هناك ولمي التملة والقرقريبة ودخلي العناقريب في الراكوبة ونزلي الهدوم من الحبل وتعالي يا التن شيلي معاي المراتب..

وين أخوانك ديل يربطوا الغنم و يدخلوا الجداد في القفص؟!.

ردت رياح وهي تنفض بقايا الشعر من على فستانها:

– ما عارفة يا أمي بيكون طلعو مع ناس مختار أو احتمال مشو فاتو ميدان الكورة مع ناس أبو القاسم.

عندما بدأن في جمع الأغراض بدأت قطرات المطر تتساقط بهدوء ورقّة.. وكأنها تهمس في أذن آمال بصوت خافت تقول لها تفاءلي بالخير مازالت الحياة مستمرة، ومازال الأمل موجودًا.

مازالت تلك القطرات تنهمر وتطرق نافذة غرفتها (ضحر التور) بعد أن أدخلت بناتها الأربعة، التن ورياح وصباح وكفاح في الغرفة الأخرى ودخلت هي غرفتها تنتظر زوجها طارق الذي خرج من الصباح الباكر دون أن يشرب معهم شاي الصباح أو يتناول فطور الجمعة كما اعتاد أن يجلس مع أسرته كل أيام الجمعة.

و مع الانتظار الذي طال بدأت تذهب وتجيء وتتحرك بين الغرفة و(الراكوبة) وتقف قرب النافذة تتأمل وتراقب جمال المطر، فترتسم عليها الابتسامة وتنسى همومها للحظات بسيطة وتشعر بالحنين إلى كل شيء إلى طفولتها وإلى تلك السنوات التي مضت من عمرها وتحن إلى قلوب افتقدتها وأحاسيس نسيتها..!

أغمضت عينيها واسترجعت شريط الماضي من أحلام وذكريات وتذكرت بنقاء المطر صفاتها الجميلة التي نسيتها بفعل متاعب الحياة والأوقات القاسية وليالي السهر الحزينة تذكرت كل شيء.. ما كانت تفعله قبل أن يدخل شعور البؤس إلى قلبها بسبب متاعب الحياة وصعابها وهمومها وأشجانها في غرفتها المظلمة، ولا تسمع سوى صوت وقع المطر على (ضحر التور) كما يسميها أهل تلك القرية، لأنها كانت تشبه ظهر الثور في شكلها. كانوا يبنون بيوتهم منو يسقفونها بالحصير والقنا ويغطونها بالمشمع حتى لا تنزل عليهم الأمطار، لذلك تسمع لها صوت حين يتساقط المطر عليها. ثم يضعون من فوقها (شولات) مصنوعة من الخيش ويغطونها بقليل من الطين حتى لا تصبح ثقيلة على الاعواد، وأخيرًا يوضع روث الحيوانات بعد أن تخلط بالماء و تخمر في حفرة لمدة ثلاثة أيام على الأقل وتقوح منها رائحة كريهة لتتماسك أكثر وتحمي السقف من المطر وأشعة الشمس و هو ما يسمونه (زبالة).

أغلقت آمال النافذة وعادت لتستلقي على السرير رافعة عينيها إلى أعلى تحدث نفسها:

– يا ربي الأولاد ديل بيكونو وين.. وسجم الرماد الأسمو طارق ما يقول أرجع أشوف أولادي ديل اكلوا شنو وشربوا شنو؟.. دي عيشة شنو دي..

ونزلت دمعتان على خديها ومسحتهما بيديها وكانت تقول:

– سلمت أمري ليك يا ربي.. ما عندي غيرك يا رب العالمين..

حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا طارق.

ثم عادت لتجهش بالبكاء والصراخ مرة أخرى لما فعلته بالطفلة كفاح وتلك الطريقة المهينة التي ضربتها بها. ثم خرجت مسرعة إلى الغرفة الأخرى وحملت كفاح واحتضنتها وذهبت بها إلى غرفتها ووضعتها على السرير ثم غطتها بثوبها وأغلقت الباب وأطفأت السراج الذي أضاءته عندما كان المطر يتساقط لتجمع على ضوئه الأشياء. و صعدت إلى السرير ونامت بجانب ابنتها ونسيت ابنيها وليد وكمال وزوجها طارق.

رغم غياب طارق لبضعة ساعات إلا أن آمال لم تستطع أن تنتظر بمفردها خاصة مع هطول الأمطار الغزيرة أحست بالوحدة وهي في غرفتها، وأصبح غياب زوجها من أقسى اللحظات التي عاشتها في ذلك اليوم رغم أنها كانت تشكو لجارتها نوال من زوجها «سجم الرماد الأسمو طارق»

لكنها شعرت بالوحدة والألم وبدأت تنتظر لحظة عودته بلهفة وشوق.

توقف هطول المطر واستيقظت آمال من نومها الخفيف وأحست بيد تلامسها بعد الغياب وبشوق وحنين دون أن تعرف متى وكيف دخل زوجها. هكذا فعل بها الشوق في غياب زوجها وحين احتاجت أن تنفض الغبار عن مقتنياتها الخاصة. لتعيد قصة عشقها وفي لحظة عابرة انتفضت الأماني والهواجس داخلها، تارة تثور وتارة تهدأ، وبقيت مسمرة أمام زوجها الذي اقترب منها وثيابه مبتلة بالمطر

وتفوح منها رائحة «الدُعاش». نزعت عنه ثيابه بهدوءٍ وبدأت تسأله وهي تمدد جسمها عليه:

– كنت وين الزمن دا كلو..

– ما شفت أنا الليلة اشتقت ليك كيف..

كأنك غايب سنة..

مشيت وين قدر دا؟!.

المهم ما علينا يا سيدي.. أنا الليلة ملكك اعمل الداير تعملوا

و لم يجب طارق على أسئلة زوجته لكنه بدأ يقترب منها أكثر، ويمرر يده اليسرى على جسدها العاري بعد أن رفع عنها ثوبها السمائي اللون لتبقى عارية وقبلها على رأسها ثم أمطرها بوابلٍ من القبلات..

وبدأت آمال تقول:

أعشق الطريقة التي تقبلني بها.. أحبك، أعشق قبلاتك وصوت أنفاسك ورائحتك..

وأردفت:

- قرب مني تعال يا طارق..

المسني بهذه الطريقة ومرر يدك ببطء على جسمي، احضني يا طارق.

واقترب منها طارق واحتضنها واستمر في تقبيلها وبدأت تبادله القبلات بدءًا بشفتيه ثم صدره ثم مررت يدها على جسمه..

وتاهت آمال بين أحضان العشق وقبلاته وكلماته وهي بين يديه مستسلمة لا تقوى على فعل شيء ورددت عبارات بصوت ضعيف :

- ما رأيت أعذب من هذه القبلات والأحضان ليتها تدوم يا طارق.

وقال طارق وهو ما زال يحتضنها:

- خلينا من كلام الكتب دا قومي سوي لينا حاجة نأكلا ونشوف العيال وين.

وقامت آمال منتفضة بسرعة قائلة:

- وأنت خليت لينا حاجة أساسًا؟.. و بعدين وليداتك ديل من ما أنت مرقت بب مرقو وراك.. كدي زح لي ننزل من السرير نشوف المطرة لسة صابة ولا وقفت.

وقال طارق:

- المطرة.. المطرة وقفت خلاص لكن ممكن تصب تاني.

وعندما امتزجت العواطف وتدغدغت المشاعر واندلعت نيران التلاقي بالجسد والأحضان واندلقت المياه لإطفاء لهيب الارتواء من شبق المتعة، ترجّلت من مكانها وما زال السائل يتقطر على جسمها وتدثرت بقطعة من القماش كانت موضوعة على الكرسي، وذهبت إلى الحمام لتغتسل ولتجفف دموع التلاقي. وأما طارق فقد خلد إلى نوم عميق ونسي أمر أبنائه وزيارة شقيقة البلولة المريض.

استيقظ طارق من نومه ووجد نفسه عاريًا وهو لا يرتدي سوى ملابسه الداخلية ولم يجد أي أحد بجانبه وأحس بغياب أبنائه للهدوء الذي كان يسود أرجاء المنزل، وبدأ ينادي على زوجته آمال ثم أخذ يرتدي ملابسه من جديد:

- يا آمال يا مرة هوي وين أنتي..

وينم العيال..

البيت دا ما فوقو زول ولا شنو؟..

مشيتو وين؟

خرج طارق من غرفته ووضع قدمه اليمنى عند مدخل الباب المصنوع من «الزنك» وانزلق وكادت قدمه أن تنكسر وبعد عناء استطاع أن يستند

على الحائط واضعًا كلتا يديه وهو يمشي في حذر شديد حتى لا ينزلق مرة أخرى، واستطاع أن يصل إلى راكوبته ويجلس في كرسي كان موضوعًا على جانب الراكوبة ثم جلس وأخذ «الأبريق» ليغسل يديه من الطين.

أحس طارق بألم شديد في أسفل القدم وأخذ يلعن ويسب، يتذمر من العوارض ويشكو من نزول الأمطار التي كان عادة ما ينتظرها لتجلب له الخير:

– ياخي دي شنو العوراض دي كمان..

– الواحد ما صدق انو المطرة نزلت وافتكرا تكون بشارة خير تجينا كمان بالعوارض دي؟..

– هسة يا الله ما تكون كراعي اتفكت وتدخلنا في حسابات جديدة مع الفلس والقرف الاحنا فيهو دا.

سمعت آمال زوجها يتحدث بصوت عالي و بلغة غير معهودة لديها. خرجت من المطبخ كعادتها مشغولة بإعداد الطعام الذي كانت تعده مبكرًا لأفراد الأسرة، فهذه العادة لا تجدها في ذلك الحي إلا عند ميسوري الحال، فإنهم يعدون طعامهم في وقتٍ متأخر بعد عودتهم من العمل إذا حصلوا على بعض النقود وفي كثير من الأحيان ينام الأطفال قبل أن يتم إعداد الطعام مما يستدعي إيقاظهم في وقت متأخر لتناوله.

كان معظم سكان الحي يكتفون بوجبة في اليوم وإذا تحسنت الأوضاع يضيفون وجبة أخرى بعد جهد جهيد إذا استطاع أفراد أي أسرة

العمل جميعهم في «سوق الله أكبر»، وبعض الأعمال الهامشية فالناس هناك يموتون من الجوع والفقر والنزوح والحب أيضًا يقتل أمثال طارق من العاشقين المخلصين..

جاءت آمال مسرعة وجلست أمام طارق ألقت عليه نظرة جميلة بعينيها الساحرتين وطبعت قبلة جميلة على جبين طارق وسألته وهي تنظر إليه وتضع يدها على قلبها:

- مالك يا راجل سجمي..

خلاص سحروك لي..

في شنو وقعت ولا شنو.

وردّ طارق وهو ما زال يتألم:

أي يا آمال حاولت أطلع من الأوضة أشوفكم وين. قلقت عليكم ومن ما ختيت كراعي انزلقت إلا ثبت في الحيطة وبنادي عليكي وأنتي ما جايبة خبري..

وردت آمال في حسرة وألم:

- معليش يا طارق والله ما سمعتك..

ألف بعد الشر عليك..

مع كركبة العدة ما سمعتك معليش..

دقايق أجيب حاجة أربط ليك رجلك ما تكون اتفكت كمان.

وما زال طارق ينظر إليها بتمعن ويقول لها:

- لا خليكي هنا جنبي ما داير حاجة.. دي حاجة بسيطة ما تشيلي هم.. أصلو الكُبر خلاص ضايقنا.

وقاطعته آمال بسرعة:

- كُبر وين..؟ أنت لسة في شبابك.. الفارس القدامي دا.. قوم تعال اقعد في السرير ارتاح خليني أعمل ليك حاجة تأكلا.

ذهبت آمال مسرعة وأحضرت كوبًا من العصير وقدمته لطارق قائلة له:

- قوم يا طارق عملت ليك عصير قوقنوليز من تبلدينا وموية نيلنا العظيم وسكر كنانة.

وقفت آمال أمامه بعيونها الساحرتين والنظرات القاتلة ومفاتنها التي لا تُحصى.. رقتها.. وجمال حديثها الذي جعلته يندهش وسط ذلك النهار.

ثم دخلت غرفتها بسرعة وغيرت ثيابها المتسخة والتي كان يظهر عليها بقع من الماء والزيت لأنها كانت تغسل الأواني في المطبخ وهيأت نفسها.. ثم سمعت صوت جارتها تناديها لتخبرها بأنها ذاهبة إلى السوق لشراء بعض الخضروات

فردت آمال:

- الليلة ما ماشة دايرة أعوس كسرة. نمشي باكر إن شاء الله .

وكانت آمال تفكر بأن تخصص ذلك اليوم كله لزوجها وأسرتها التي قليلًا ما تتفرغ لها نسبة لعملها كبائعة شاي في الأسواق، تخرج منذ الصباح الباكر ولا تعود إلا في منتصف الليل.

نظفت المكان بسرعة خيالية وبدأت تُعد طعام وجبة الغداء وأرسلت طفلتها الصغيرة كفاح إلى الجيران لتجلب لها بعض الأغراض.

فأصبحا اثنين لا ثالث لهما سوى الحب بعد أن خرج الجميع حتى البنات، التن وصباح والأولاد وليد وكمال اللذين خرجا ولم يعودا حتى تلك اللحظة. ثم عادت آمال إلى الراكوبة. حدقت في طارق كأنها تتأمل في تفاصيله. نطقت كلمة واحدة فقط بعد أن نظرت إليه مليًا..

- أُحبك..

فقال طارق:

- وأنا برضي..

ثم أعقبت بكلمة أخرى وقد علت فاها ابتسامةٌ:

- وأنت برضك شنو..

فقال:

- برضي بحبك..

فأردفت بسؤال آخر:

- ليه بتحبني؟

فغابت إجابة طارق عن قصدٍ.. لم تتركه بل واصلت في حديثها معه..

- ليه حبيتني أنا بالذات رغم الفوراق الكتيرة البينا..

التعليم.. العمر.. الجنس.. وكادت أن تقول الديانة..؟

- ليه أنا بس؟..

شنو الخلاك تندفع تجاهي وترتمي في أحضاني..

وأنت ما شاء الله عليك زول فاهم..

معلم.. و زول حبوب..

ليه ما اخترت أي واحدة قريبة منك.. من بنات أهلك؟..

وبعد صمتٍ قال طارق:

- لأنك أنتِي زولة مختلفة من البنات.. كيف أفتش عن النجوم في السما والقمر باين.. وبعدين أنتي جاية بعد العمر دا كلو تسأليني حبيتك ليه؟

قاطعته آمال وهي تنظر إليه باستحياء:

- خلي فلسفتك دي وجاوب على أسئلتي دي.. وبعدين الحب يا طارق بجي في أي وقت وما بنتهي كمان بمرور الزمن ولا شنو يا فارس زمانك؟!

أجابها طارق وهو يبتسم:

- ما في واحدة من الحسنوات بتستاهل وتستحق أني أبادلا الحب غيركِ.

وعادت لتسأله مرة أخرى:

- ليه يا طارق أنا بالذات؟

- لأني حبيتك قبال ما أشوفك.. وفعلًا حبي ليكي ما بعرف وقت وأنتي صادقة في كلامك..

وقالت آمال:

- ياخي معقول؟

- بحبكِ..

بلا شروط.. لأنك بتستاهلي..

أنتِ زولة للزمن.. وكل رحلة بمشيها أنتي معاي.

ثم صمتا قليلًا.. ونظرا لبعضهما بنظرات الحب الجميلة ونظر طارق إلى ساعته «الكاسيو» التي عادة لا ينزعها من يديه النحيلة، ووجد أن الوقت قد مضى كثيرًا دونما شعور بعد أن أخذ يجول بنظره فنسي كل شيء في فكره وخياله حتى ظروفه العصية وزمانه الضائع الذي ضيعه وضاع معظم عمره بين الضالة الضمنة والكشتينة ورواكيب الحبوبات.

تجوّل طارق بذكرياته في طيف خياله المنكسر بوحشة الظروف وغربة الأيام. في تلك اللحظات دونما شعور مضى الوقت. وفجأة أحس طارق بيد شخص يضربه على كتفه ويقول:

- طارق سرحت وين..

- مالك كدا كراعك بتوجعك ولا شنو؟

ورد طارق بعبارات قصيرة ليطمئنها:

- لا لا ما في حاجة كنت بتأمل فيك يا ست الجمال.

وقالت له آمال:

- خلاص قوم يا سيد الرجال وامشي وقت كراعك بقت كويسة شوف وليداتك ديل وين وأنا ذاتي أطلع معاك أشوف بنياتي ديل طارن وين؟

وخرجا معًا يبحثان عن أبنائهما كُلٍ في طريقهِ. طارق يرتدي جلبابه الأبيض وعلى رأسه عمامته ويحمل عكازه وقد وضعه على كتفه كرعاة الأغنام حين يسرحون بالماشية. أما آمال «لفت توب الحلة» وخرجت دون أن تربطه جيدًا وهي قلقة على غياب أبنائها.

فارقت زوجها بعد أن أوصت جارتها نوال على ابنتها كفاح التي كانت معهم في منزلهم تلعب مع صديقتها. و مع خوفها واستمرار قلقها كانت تستذكر تفاصيل تلك اللحظات الجميلة التي عاشتها مع زوجها والتي لا يعرفها أحد وكيف قضيا معًا نهار العشق بذلك اليوم الممطر.

وأما طارق فقد قضى وقته وهو يبحث بين الطرقات ويحدث نفسه ويغني وينظم كلمات في سره تحكي تفاصيل اليوم الجميل الذي لن

ينساه مع زوجته تلك المرأة التي وصفها وهو في طريقة بأنها امرأة خُلقت لتكون له.

ويستمر يناجي نفسه ويقول:

- وخلقت أنا لأقى لها..

ويتذكر حياة محبوبته حين كانت تقف على حافة الضياع وجحيم الحياة يكاد أن يلفظها وكانت تقف متفرجة على رصيف الحياة تُعاني وحيدة. مع أنها جميلة وفي غاية الجمال ولكن لم يكن أحد يستطيع أن يقترب منها لشدة جمالها، وبدا طارق كأنما يسطر من جديد قصة عشقه مع زوجته ويكتب على الهواء الطلق كما كان يفعل تلاميذ المدارس الابتدائية فيرسم بيده النحيلة أحرفًا في سماء ذلك كونها الجميل في وسط عالم القبح الذي كان يعيش فيه والذي يخفي جمال الأخريات.

آمال امرأة تمنح بسماتها للتعابة والكادحين تخفف عنهم شظف العيش، سر جمالها في عشقها المختلف فهي تعيش له وتحرم نفسها من أشباه العاشقين كي يبقيا معًا، امرأة ترك عندها كل تفاصيل حياته المملة دون أن تسأل.

تحب الوطن وتكره اللعبة القذرة المدعوة السياسة التي جعلتهما يفترقان ويبقى أسيرًا بين المنافي والمعتقلات.

كان طارق قد سئم الحياة وصعابها بعد أن عانى كثيرًا من عذابات المعتقلات والمنافي لآرائه السياسية المناوئة للتنظيم الذي يحكم البلاد،

فظل يكره كل ألاعيب السياسية ولا يثق فيمن يدّعون أنهم قادة للتغيير الذي لم يره. طارق سوى في ثيابهم وسياراتهم الفارهة التي كلما ما دخلوا بها الحي الذي يسكنه طارق يهرول الأطفال عليهم آملين في حفنات من الجنيهات أو قطعة من البسكويت أو ما شابه ذلك من أشياء كان يلقيها سائقو تلك السيارات الفارهات وكأنما العالم عالم يأخذ كل شيء حتى من نحب. عالم يأخذ أوطاننا وأطفالنا، ونساءنا حتى حبنا. ولا يترك لنا شيئًا. لكن حين تمنحك الحياة امرأة مثل آمال كأنما امتلكت كل شيء فهي تمنح الربيع للفصول والحقول. تزين ببسمتها شقاء الأيام تداعب الأطفال وتأنس الكبار.

امرأة تمنح كل شيء للحب وللزمان القادم تمنحك الأمان في أحضانها، امرأة ثروة تكفي لسنين الحياة العجاف كما يُقال عنها في الأمثال، رؤيتها «عند الصباح ولا البقر المراح»، امرأة ثورة تثور في ميادين العاشقين تهتف وتصرخ وتصدح بملء الفم من أجل غدٍ أفضل، هكذا تفعل من أجله كل شيء. للأمان والحب، إمرأة جمعت ملامح الوطن وجسدت تنوعه في تناغم مدهش وفي شخصيتها الكثير من الصفات والقيم النبيلة هكذا كانت وكل أشيائها التي تفعلها بحياء. وتقف في انتظار رحمة السماء.

حدث ذلك الحديث المطول وطارق في طريق البحث عن أبنائه يسأل المارة هنا وهناك يمنة ويسرة وبين أزقة وشوارع الحي إلى أن وصل إلى دكان عبدالكريم فسمع عبدالكريم يناديه بصوته الجهور:

- يا طارق.. طارق ماشي وين بعصايتك دي والواطة ماشة تمغرب..

كدي تعال لي جاي اقعد هنا..

وأجابه طارق بسرعة:

- أولادي مرقو من الصباح وما عارفهم وين لهسي..

وردَّ عبدالكريم وهو يناول أحد زبائنه ربع ملوة من اللوبياء البيضاء:

- اقعد.. اقعد أولادك قبيل جو هنا وطلعو مع ولدي هارون قالو عندهم مباراة في حي الأسر.. زي الوقت دا ياداب بكونوا جايين ما تقلق.

وجلس طارق على الكرسي أمام دكان عبدالكريم الذي يقع في الميدان الشرقي للحي بالقرب من مسجد الأنفال ومخبز الإخلاص الذي يمتلكه عبد الحي، وبعد أن أخذ نفسًا طويلًا وضع العصا على الأرض بالقرب من الكرسي، وبدأ يتبادل أطراف الحديث مع عبدالكريم حول تجارته وأصدقائه وأخبار الحي وأهله الطيبين. لم يدم حديثهما طويلًا وقَدِم الأبناء الغائبون وليد وكمال وهارون، وعندما وصلوا أمام الدكان انتصب طارق على قدميه صارخًا في وجوههم قائلًا بصوت عالي تظهر عليه علامات الغضب:

مشيتو وين من الصباح يا أولاد اللذين.. الليلة دي بأدبكم لامن تعرفو حاجة.

و تقدّم طارق خطوة إلى الأمام وأمسك بهم ضاربًا بهم بعضهم البعض حتى سقطت عمامته من على رأسه، وسقطت بعض النقود والأوراق التي

كان يحملها في جيب جلبابه الأمامي الكبير ولم يستطع وليد أن يحتمل ذلك وبدا يبكي ويتمتم بكلمات:

- يا أبو.. أبوو.. أبوي مشينا حي الأسر كنا عندنا مباراة.

فقاطعه والده الذي ما زال منفعلًا لغيابهم الذي طال:

- وما كلمتوني ليه؟!.

وردَّ الابن الأكبر كمال خارجًا من صمته الدائم:

- يا أبوي أنت كنت مافيش لكن كلمنا أمي.

- هوي يا زول ما تكضب أمك ذاتا طلعت معاي ماشة تفتش عليكم.

و أردف كمال:

- والله كلمناها بتكون نست يا أبوي.

حدث كل ذلك وعبدالكريم في دكانه مشغولًا مع زبائنه يبيع لهم ما يحتاجونه من مواد ومنتجات غذائية. وعندما انتهى من عمل خرج من دكانه ووجد طارق منفعلًا فسأله:

- مالك يا أخوي منفعل كدا.. مش قلت ليك فاتو الكورة.. كلامي ما طلع صاح؟ خلي الأولاد يلعبوا ما عندهم غير دا.. ما أحسن من ما يشربو سليسون مع الشماسة في سوق الله أكبر.

وردَّ طارق بعد خفف حديث عبدالكريم موجة غضبه:

- لكن يورونا أنهم طالعين.. إحنا ما عندنا غيرهم في الدنيا دي.. بعدما فقدنا أي حاجة فضل لينا الأولاد ديل بس.. ويا خي كورة شنو ذاتا ما حصل شفنا زول من حلتنا بلعب في الهلال ولا المريخ.. دي بلد شنو دي كلها ماشة بالغلط.

قاطعه عبدالكريم طالبًا منه أن يجلس بعد أن أمر الأولاد أن يذهبوا:

- يلا يا أولاد امشو وكل واحد يمشي يستحما.. شوف وسخانين كيف من الطين دا.

انصرف الأولاد وجلس طارق ليستمع إلى عبدالكريم الذي كان يُعد البابور لتشغيله لإنارة الحي.

أكمل عبدالكريم حديثه:

- أنت ما عارف يا طارق أخوي أنو البلد دي ماشة كيف.. وأنت زول أستاذ ما بوروك الكلام دا.. من ما جوا الناس الفي السلطة دي ما شفنا خير. ياها الحروب والدمار والخراب والجهاد وكل حاجة خربانة وأنت عارف.

واستدار طارق في كرسيه ووضع يده على خده وخالفًا رجليه قائلًا:

- ياها فعلًا الحاجات ماشة كدا.. انحنا القراقير ديل كانوا مكتوب لينا العذاب في جبينا يوم ميلادنا. ما حصل شفنا خير خصوصًا مع العواليق الفي السلطة ديل.. غشو الناس بأفكار الجهاد والانتماء للعرب والدين وبقى الناس يكاتلوا بعض.. ما عرفنا البلدي بتهدا متين؟

كانت علامات اليأس والاشمئزاز من الواقع البائس تظهر على وجه طارق ولم يكن بيد عبدالكريم حيلة سوى أن يشجعه ببعض الكلمات:

– شوف يا أخوي ما في حل غير نعلم عيالنا ديل. وبعدين نمتلك الإرادة والعزيمة والإصرار عشان نحقق الحاجة الدايرنها.. زو دي ما بتجي بالبارد كدا يا طارق..

اتمسك بالأمل.. أنتو لسة شباب وممكن تحققو المستحيل، ..احنا خلاص كبرنا ما شايف الصلعة؟ والشعيرات البيضاء الفي الدقن دا.. لكن برضو نقول الحمد لله على كل شيء.

التفت طارق إليه بعد أن تسمر في كرسيه وهو في دهشة يستمع لعبدالكريم الرجل البسيط الذي يحتقره الناس.

تأمل طارق في الكلمات التي كان يقولها ووعده بأن يعمل على أن يزرع حب العلم في أبنائه والتمسك بالأمل في التغيير.

كان طارق يشعر برغبة شديدة لمواصلة حديثهما إلا أنّ غياب بناته يجعله مضطرًا ليقطع هذا الحديث. و طلب من عبدالكريم أن يعطيه القليل من الجازولين لإشعال مصباحه في المنزل.

قدّم طارق النقود لكن عبدالكريم رفض أخذها وانصرف طارق نحو بيته يفكر فيما كان يقوله عبدالكريم وفي بناته الغائبات.

وصل طارق البيت ووجد الجميع موجودين بناته الأربعة التن ورياح وصباح وكفاح، وأولاده وليد وكمال وزوجته آمال، جميعهم جالسون في فناء البيت وسط العتمة ولا شيء من الجازولين ليضيئوا بها المصابيح.

دخل طارق وكان يمشي رويدًا رويدًا حتى لا ينزلق ويقع في الطين لأن الأرض مازالت مبللة بماء المطر الذي هطل صباح ذلك اليوم . كان يمشي ببطء إلى أن وصل حيث تجتمع أسرته وجلس على طرف السرير حيث كانت آمال جالسة واضعة أشياءها بجانبها من أواني لقهوة المساء التي اعتادت أن تشربها مع زوجها. مد لها طارق الجازولين ونادى ابنه كمال ليحضر المصباح:

- تعال يا كمال جيب اللمبة كب فيها الجاز..

ذهب كمال وأحضر اللمبة وملأها بالجاز وأشعلها بالكبريت واضعًا النار على قطعة القطن البارزة على اللمبة والمبللة بالجاز فاشتعلت فأضاء البيت وهتف الجميع.. ووو.. كأنهم انتصروا على شيء عصيّ.

استلقى طارق على السرير وجاءت رياح سائلة عن زيارتهم لعمها ود البلولة. تلك الأسئلة التي كان يتحاشها طارق خشية أن تباغتها أسئلة أخرى:

- يا أبوي ما حنمشي لناس عمي؟

وردّ طارق بعد أصلح (المخدة) وهو ينظر إليها:

- يا بتي أنتي شايفة المطرة صبت كتيرة والموية راقدة في الشوارع ما حنقدر نمشي..

ممكن نأجل الزيارة للجمعة الجاية.. وأنا ناوي كمان أسوق أخوانك كلهم أمك.. نمشي لعمك نزوره ونطمن عليهو.. بالي ما راق من ما قالو

عيان.. ربنا يقومو لينا بالسلامة.. اصلي ما عندي غيرو بعدما فقدت أخواني التلاتة في الحرب قبال عشرة سنوات.

قبلت رياح فكرة والدها وصدقت ما قاله وتحمست لفكرة اصطحاب إخوانها معهم لزيارة عمهم. جهزت آمال العشاء وقدمته لأفراد أسرتها واجتمعوا جميعًا حول مائدة العشاء.

مع تناول طعام العشاء بدأ طارق يقص عليهم قصة حياته مع والدتهم وعن كفاحه في الحياة منذ أن كان عاملًا في الحفريات ما بين حفر(منوهلات) أسلاك الاتصال لشركة (سوداتل) والعمل في كماين الطوب. وحدثهم في أمور شتى وحثهم على أن يحبوا بعضهم كأخوة ويحترموا ويتقبلوا الأخرين ويجتهدوا في دروسهم خاصة مع بداية العام الدراسي الجديد وكان يقول لهم:

– زي ما أنتو عارفين يا عيالي أنو ظروفنا صعبة شديدة وما عندنا حاجة.. ولا زولًا نتكل عليهو غير ربنا.. بس ما تقلقو طول ما أنتو ماشين في الدرب العديل مافي عوجة بتجيكم..

– أمكم دي تعبت بيكم شديد.. وهسة أنت يا كمال خلاص بقيت راجل.. تبقى عشرة على أخواتك ديل.. وأنا الغلط ما بدورو.. أهم حاجة تكملو المدرسة وكل زول يقدر يحقق الحاجة البحلم بيها.. الحياة ما ساهلة.. ما تفتكرو أي حاجة ممكن تجي بالساهل كدا.. انحنا ديل تعبنا وشقينا في الحياة دي..

أطال طارق في حديثه إلى نامت طفلته الصغيرة كفاح على حجره. وبعد نطق بهذه الكلمات أحس بأنه يريد أن يكتب شيئًا عن قصة عشقه اللانهائي مع زوجته كما اعتاد أن يدون كل ما يمر به من لحظات وأحداث وقام من مكانه وغسل يديه وردد:

- الحمد لله أنا شبعت.. ملاح الخضرة بحبو جدًا.. الله يخليكي لينا يا أم العيال..

بينما كان يتحدث تقدم نحو غرفته تاركًا أبنائه يكملون العشاء قائلًا لهم:

- أدخل الأوضة أعمل حاجة وأجيكم.. ما في زول يمرق برة الواطة ليل.

كان طارق يسعى أن يسطر لأبنائه قصة حياته وما عاناه في شبابه. لأنه لا يملك شيئًا يتركه لهم سوى بضعة كلمات يقولها أو يكتبها على الأوراق لتبقى لهم يواجهون بها صعاب الحياة وتحدياتها. وحتى لا يعيشوا حياة صعبة مليئة بالمآسي مثله. وكم كان يعاني لتوفير احتياجاته.

دخل غرفته وأحضر قلمًا وكراسة من كراسات أبنائه القديمة ومزّق منها بعض الأوراق وجلس على السرير وأخذ المحبرة وملأ القلم بالحبر وبدأ يضع النقاط على الحروف ليرسم لهم مستقبلًا. وكأنما كان يعدهم للغد. يعدهم للمصير والمستقبل الذي ينتظرهم حتى لا ينصدموا غدًا بواقع الحياة كما انصدم هو الآخر حين عرف أن والده لم يترك له شيئًا

بعد أن تزوج بعدد من النساء وأنجب كمًا هائلًا من الأبناء ولم يستطع أن يصرف عليهم أو يؤمّن لهم حياتهم إلى أن توفاه الله في الثمانينات.

كانت عبارات طارق وكلماته تحوي معاني الصدق والوفاء. توقف عن الكتابة برهة وصمت وكأنه يحدّث نفسه:

- دي ظروف شنو الخلتنا نعاين في ايدين الناس..

جعل طارق يتخيل زوجته التي احتملت معه الظروف الصعبة التي مروا بها في حياتهما. وكان يتخيلها في كل الأشياء في محطات الحياة عبر أسفارها الكثيرة ومتاعبها ومحطاتها ولحظاتها. فكتب عن زوجته التي جاءت إلى هذه الدنيا لتضيف لحياته رواية يكتبها بمداد حبه للأيام الخوالي.

حكايتها تطول كلما خطر بباله مواضيع الحب الشائكة. كانت حسناء جميلة المنظر تدهش الناظرين إليها في الطرقات، تتركهم يكثرون الحديث عنها، يعظمون الخالق لجمالها الفاتن. فالخالق فنان ماهر شكلت يداه هذا الكون الفسيح. تحكي الطبيعة عن إبداع لانهائي، كيف لا وآمال من بين خلائق الله بديعة جميلة المنظر. هذه المرأة تستحق أن ندفع مهرًا لأهلها في كل يوم فمن يخطب الحسناء لم يغله المهر، تمتاز بقوة الشخصية تجيد الحديث في حياء نسائي جميل تعامل الناس باحترام لم يسبق له مثيل. جمالها يفضح قبح الأخريات اللائي يصنعن جمالهن الزائف. لا تحتاج لمساحيق الجمال فهي تحافظ على لون بشرتها الأسمر مما جعل طارق يحبها ويعشقها حد الجنون ويتعلق بها.

يمكن أن تعد نفسها في بعضة ثواني. أي ثوب ترتديه يليق بها، فهي ليست بحاجة إلى كبير عناء لتختار ثيابها. فهي تظل دائمًا محط أنظار الناس.

آمال سيدة كل دار، كل ديار سكنتها كانت ديار للجمال والألفة والمودة بحقيقتها وبساطتها وجمال شبابها. ترتدي حُللًا من القيم النبيلة. لم تخذله كلما احتاجها وجدها بالقرب منه تؤازره وتسانده في أحلك الظروف. هي كلماته لكل الأسطر والقوافي. أحبارها تسيل على أوراقه جمالًا يختال على بياض الورقة لتمنحه لوحة يرسمها قلمه في هدوئها.

تنتهي عندها الكتابة التي هي متنفسه الأخير في لحظة شروده وانشغاله بمتاعب الحياة. تشاركه كل شيءٍ بكائه، أحزانه، أفراحه وأوقات انتصاره.

تشاركه كل شيء في الحياة من أيام الفقر وسنين القحط ولحظات الغنى والفرج الوقتي وهي تبقى الأمل في عمره.

كتب طارق حتى ملأ عدد من الصفحات دون أن يشعر وإلى أن وصل إلى عبارات الاعتذار ليكتب..

دعيني أعتذر قبل أن ينتشر الحزن في كل الربوع دعيني أعتذر..

عذرًا سيدتي على كل حال، فليس كل الناس يعرفون معنى الحب. أعتذر بشرف الحب الباقي بيننا. عذرًا آمال فأنتِ من دمي وفي كل تفاصيلي. لذا دعيني أعتذر بدءًا بنفسي الحزينة وحياتي الكئيبة من دونكِ يا أميرة. عذرًا سيدتي إنها الحياة ربما تبعدنا في أي لحظة تمر..

ولكن..

سأبقى أحبكِ إلى أن أرحل.

وما أن أكمل كتابة قصته وهذه الجمل التي يعتذر فيها لزوجته، أحس بأحد يفتح الباب فرفع رأسه ممسكًا بالقلم فكانت زوجته آمال تقف عند الباب قائلةً:

- أنت يا راجل مالك خليتنا برة.. بتسوي في شنو الوقت دا كلو؟.. والعيال راجنك برة تجي تتونس معاهم وتحكي ليهم قصصك الكتيرة ديك..

لقد عوَّد طارق أسرته أن يحكي لهم قصصًا كثيرة، خاصة عن أيام الحروب والظروف التي مروا بها في قريتهم (إترم). وفي ذلك اليوم خطر على باله أن يحكي لهم أحدى قصص معاناة أهله في القرية فكانت قصة كالو حاضرة.

نهض طارق من مكانه وخرج معها وانضما لأبنائهما ليحكي لهم قصة كالو. وقبل البدء في سرد الحكاية طلب منهم أن يخبروه عن أمنياتهم وأحلامهم المستقبلية فلم ينتظر وليد كثيرًا فقال:

- أنا بحلم أكون رئيس الجمهورية.. عشان أكون أول زول من أهلنا يحكم البلد دي.. زي ما حكى لينا أبوي انو من زمان مافي زول من أهلنا بقى ريس بس ليه كدا؟..

أما كمال الذي كان يكبرهم جميعًا والمعروف بهدوئه فقال:

أنا خلوني مع الكورة دي بس.. ما داير أي حاجة لكن بحلم ألعب برة وأكون محترف كبير..

ثم قالت رياح:

أوعدك أبوي إني أكون محامية وادافع عن كل زول مظلوم في البلد دي.. وارجّع أي زول فصلوه من شغله بدون حقوق.. زي ما فصلوك يا أبوي.

فصمت الجميع في انتظار أختهم التن التي غاصت في أفكارها ثم قالت:

- دايرة أغني وأكون فنانة مشهورة.. وحفلاتي كلها بهديها للناس التعبانين زينا.. الما عندهم قروش يعالجو بيها أخوانم عشان ما يموتو زي ما مات ود جيرانا السنة الفاتت لمن أهله ما لقو قروش العملية.

تأثّر الجميع بما قالته التن وامتزجت مشاعرهم بالحزن والألم فكانت والدتها أكثر تأثّرًا فذرفت دموعًا كما كانت تذرفها كلما رأت إنسانًا يتألم وليس لديه نفقات علاج. ثم قالت لابنتها الصغيرة كفاح:

- أها يا بتي وأنتي دايرة تكوني شنو يا عسل أمك؟

قالت كفاح وهي تضع أصابعها في فمها:

- أنا نفسي يا أمي أكون دكتورة.. وأعالج أي زول عيّان.

كانت صباح تستمع إليهم جيدًا وتفكر في أحلامها

- هوي شوفو أنا.. ما زولة ساهلة..

فقال الجميع:

- أها قولي دايرة تكوني شنو؟

- قالت صباح:

- نفسي أكون مذيعة وأقدم برامج تثقف الناس يقدروا يعيشوا مع بعضم.. وما نسمع أنو في حروب.. وكل الناس تعيش في سلام.. وطبعا يا أبوي برنامجي حيكون في تلفزيون السودان وأسميهو «مع صباح» ويتبثا مع الصباح وأول زول أستضيفك يا أبوي تتكلم لينا عن النجاح، والصعاب في الحياة.

كانت صباح أكثر ذكاءً من أخوانها ودومًا ما تحلم أحلام أكبر من سنها، كما كانت تصفها والدتها التي دومًا ما تتحاور معها خاصةً بعد أن أكملت فترة مراهقتها.

استمع طارق لأبنائه وهو في قمة سعادته بما سمعه من أحلام رغم أنهم كانوا في أعمار صغيرة إلا أنهم كانوا مدركين بما يدور حولهم لما يعلمهم له والدهم كلما اجتمعوا عند المساء في فناء المنزل برغم أن أغلب الأسر لا تفعل ذلك. ثم بدأ طارق يحكي لهم قصة كالو:

كالو شاب ظريف مجتهد في حياته يسكن في قرية نائية جميلة بطبيعتها وسحرها وريحانها وعبيرها، قرر ذلك الشاب الرحيل والابتعاد عن القرية، بعد أن رفض والده أن يزوجه فتاة كان يحبها من قبيلة أخرى تعادي قبيلته وبينهم عداءات مستمرة منذ زمن بعيد، لذلك فضّل كالوالاحتماء بقبيلة أخرى يخدمها وتحميه وتزوجه احدى فتياتها، رغم أن ذلك كان عارًا يُحسب للقبيلة التي يهجرها أحد ويحتمي بقبيلة أخرى.

تراجع والد كالو عن قراره بعد أن أُقيم مؤتمر صلح في القرية بين القبيلتين المتنازعتين وأصبح أفرادها يتداخلون مع بعضهم البعض رغم بعض المشكلات التي تطرأ بين الحين والحين بسبب الرعي.

جمع والده شيوخ القبيلة وأخبرهم بموافقته على أن يتزوج كالو بالفتاة التي يحبها. فقبلوا واتفقوا على أن تتم المراسيم في يوم جمعة بعد الظهر في الدار الكبير.

عمّت الأفراح القرية وانطلقت (الزغاريد) من كل بيت وصار عرس كالو حديث الناس في المجالس والمجامع وجميع (الفرقان) لأنه كان محبوبًا لدى الجميع صغيرهم وكبيرهم ومعروفًا لدى الجميع بشهامته.

كان شابًا خدومًا يقدّم الخدمة متى ما طلبت منه. فهو لا يتوانى عن ذلك حتى في أحلك الظروف بل كان يحسب ذلك دورًا وطنيًا لابد من الاشتراك فيه، فالوطن عند كالو هو كل شيء.. طفولته، صباه، شبابه، أهله، أصدقاءه وأحبابه.

انقسمت الفتيات ما بين جمع الحطب وتحضير الماء وبعضهن انشغلن بترتيب البيت.

لم تكن العروس تحتاج الكثير من الاهتمام لجمالها الفائق فهي في غاية الجمال ولتقاليد أهل تلك القرية وأعرافهم وبساطتهم في التعامل مع الأشياء.

جاء يوم الجمعة الموعود ولكن لسوء الحظ لم يحضركالو. فقد تعب شبان القرية في البحث عنه بلا جدوى، وفجأة ظهر في القرية المجاورة لقريتهم وهو يسرح بالماشية ويغني أغنيته الوحيدة التي يحبها والتي تذكره بمحبوبته زهور.

– عمر الزهور.. عمر الغرام.. عمر المُنى..

قابله بعض الذين كانوا في طريقهم لحضور عرسه، لكنه لم يكن يعلم بذلك وعندما أخبروه طار من الفرح ورمى العصا التي كان يحملها وأمسك يد أحد الشباب وصارا يرقصان معًا ابتهاجًا بالخبر السعيد. و طلبوا منه أن يذهب معهم ليرى بأم عينيه لأنه لم يصدقهم حتى لحظه الرقص، وصل كالو ووجد الناس في انتظاره، دخل بعد عناء وتوجه بالجلوس في المكان الذي خُصص له، أُصيب الجميع بالدهشة فبدأوا يتهامسون كيف يحضر كالو بهذه الملابس المتسخة والتي تفوح منها رائحة الرعي والنوم على الأرض، لم يهتم الشيخ بذلك كثيرًا بل ابتدأ في إجراء المراسيم، ولما

فتح كالو فاه لينطق تزامن صوته مع دوي المدافع التي قذفت الدار وبعده قُذف بالصاروخ وتشتت الجميع للاحتماء والهرب من جحيم الموت في ذلك اليوم.

تفرقوا جميعًا واستعد الشباب للحرب والدفاع عن أرضهم التي تريد الحكومة أن تنهبها منهم لأنها كانت غنية بالموارد الطبيعية الزراعية منها والحيوانية، خرج الجميع للذود عن الأرض حتى العروس خرجت معهم انتقامًا لأهلها ولأرضها ولم يتهنَ كالو بعروسته.

وأكمل طارق هذه القصة وصفق له الجميع ووعدهم بأن يحكي لهم قصص أخرى في مقبل الأيام.

***

جاء يوم الجمعة الذي انتظرته رياح كثيرًا فبدأت بترتيب الأشياء استعدادا لزيارة عمها ود البلولة. رتبت ملابسها ووضعتها في الحقيبة الجلدية التي أهداها لها خالها البلة عندما عاد من غربته في الخليج. وكما أنها لم تنسَ أن تضع ملابس شقيقاتها وأحذيتهن وأغراضهن الخاصة، وأخذت معها مجلة شبان المستقبل التي كانت تحب قراءتها للموضوعات الشيقة التي تتناولها المجلة والمسابقات المتواصلة والتي يحصل الفائز منها على جوائز قيمة تشجع الشباب لمتابعتها.

كانت رياح تتحرك كثيرًا في البيت لا تستطيع أن تجلس لتشوقها، لأن الزيارات في تلك الأيام لها طعمها الخاص ولأهميتها عند الكثيرين. لذلك تجد معظم الناس يهتمون بها لأنها تربط وتوثق لعلائق اجتماعية جيدة لا تنقطع أواصرها.

استعد الجميع وباتوا ينتظرون بفارغ الصبر إشارة التحرك من ربّ الأسرة طارق وما أن قال:

- يلا يا جماعة نمشي.

ركض وليد وألتن نحو الحقائب والأكياس البلاستيكية الموضوعة على الأرض وحملوها واتجهوا نحو الباب الرئيسي للمنزل في انتظار العم عبود الذي سيقلهم (بالكارو) الذي كتب عليه عبارة (وطني

السودان) لحبه الشديد للوطن وحماره (المكادي) الذي تظهر عليه الجروح من شدة العمل المتواصل بين الأسواق فينقل الأطعمة الجاهزة للعاملات اللائي يبعن المأكولات البلدية من (كسرة، عصيدة وقراصة) وينقل أيضًا المواد الغذائية (لدكاكين) الإجمالي في سوق الله أكبر ونقل الحطب من حي(الزرايب).

ولم يكن عبود يطعم حماره جيدًا لقلة دخله اليومي، حيث كان يكتفي بربطة برسيم واحدة في اليوم الواحد بالإضافة إلى بعض فتات الأطعمة التي يجدها والتي يأخذها من العاملات وأصحاب المطاعم مما أصاب حماره بالضعف والوهن. ولأن عبود كان رجلًا طيبًا استغل الناس طيبته وبساطته وأصبحوا لا يدفعون له ثمن المشاوير وخاصة النساء كثيرًا ما يوعدنه بإعطائه المبالغ فيما بعد وهكذا تتراكم عليهن الديون إلى أن يتنازل عنها عبود ويعود في آخر اليوم وفي جيبه بضعة من النقود يشتري بها بعض الأشياء لأبنائه الذين ينتظرونه حتى أوقات متأخرة من الليل، برغم من العمل الكثير والمضني إلا أن الدخل يكون دائمًا غير كافي لتلبية حاجات الأسرة وإطعام حماره. وبهذا الحمار سيقل عبود أسرة طارق إلى محطة بصات الحكومة حتى يستطيعوا ركوب موصلات الحلة الجديدة غرب الحارات للوصول لقرية (ود دلدوم أم جر) حيث سيتجهون.

وصل عبود بحماره بعد دقائق قليلة من الانتظار وأوقف الحمار وهو يمسك باللجام ويقف أمامه ويقول:

- هاو وش.

ورمى للحمار قطعات صغيرة من(الكسرة الناشفة) ونادى على طارق بصوته الضعيف:

- يلا اركبو يا جماعة نوصلكم وراي مشاوير كتيرة.

فبدأ وليد وكمال بوضع الحقائب في المكان المخصص لوضع الأشياء أسفل الكارو.

ركب الجميع ماعدا آمال لأنها لم تسطع أن تركب لعلو (الكارو) ونزلت رياح وأتت بصندوق بيبسي من دكان الحسن والحسين الذي يقع في الناحية الغربية من منزلهم ساعدت به أمها للصعود بعد أن أمسك والدها بيدها. وقال عبود وهو يقف أمام حماره حتى لا يتحرك:

- أها يا جماعة نتوكل على الله؟.. ولا في حاجة تانية؟

وردَّ طارق وهو يحمل الطفلة كفاح:

- على بركة الله.

بالرغم من بعد المسافة ورغم أن طارق كان يعاني مع أسرته في الوصول إلى شقيقه إلا أنهم أصروا على الوصول للاطمئنان على صحة ود البلولة. رغم أنهم تعبوا وأحسوا بالإرهاق من ركوب البصات القديمة لكنهم يحاولون النظر إلى الأمام.. إلى ذلك النور.. نور الأمل الذي

سيجمعهم بود البلولة وأسرته.. فلم تمنعهم المسافة البعيدة عن التفكير في صحته.

بعد عناء من طول الطريق وصلت أسرة طارق ومرّوا بالسوق الكبير واشتروا بعض الفواكه والخضروات.

طرق طارق الباب ولم يجيب أحد، فطرقه مرة أخرى وسمع صوت زوجة شقيقه نفيسة ترد قائلة:

- يا مرحب السلام اتفضلو لجوة..

وكانت «تلبس في ثوبها» وتتقدم نحو الباب لتعرف من القادم وتفاجأت بطارق وأسرته. فرحت للقائهم ومجيئهم وتبادلت معهم التحية ترحب بهم رغم أنها حاولت تخفي حزنها على مرض زوجها عندما سألها طارق وهو ما زال يقف يتفقد أحوالهم:

- أها الزول دا كيف؟.. ما اتحسن حبتين؟

لم ترد نفيسة واستدارت لتمسح دمعة حتى لا يراها طارق وردت بصوت يظهر عليه الحزن والخوف:

- صدقني يا طارق لسة في حالو.. امبارح رجعنا بيهو العيادة لكن برضو ما في جديد.. قلنا نصبر للمساء تمبش يرجع من الشغل ونوديهو المستشفى التعليمي في الوادي.. قالو في دكتور كويس بتاع صدرية.. بركة الجيتو.. تعبانين ما في زول معانا.. وانقطعنا ذاتو..

تقدم طارق خطوات وأمسك بها وأجلسها على السرير وطلب من أبنائه وضع الأشياء وجاءت آمال وجلست معاهم لتخفف عنها حزنها:

- ما تشيلي هم.. إن شاء ود البلولة حيقوم بالسلامة.. إحنا جينا ما تخافي.

تركهما طارق ودخل إلى الغرفة التي كان فيها ود البلولة راقدًا على فراشه.

جلس طارق عند رأسه وأمسك بيده قائلًا:

- مالك يا أخوي؟.. المرة الفاتت ما كنت كويس؟

وردّ ود البلولة بعد أن مد يده التي يظهر عليها الإعياء ليلقي التحية على شقيقه:

- خلاص يا أخوي أنا شكلي حاودعكم.. أبقو عشرة على بعض.. وأولادي ما أوصيك عليم.. أصلو الدكاترة ما بطمنو.. والظاهر دا ما مرض صدري. وشغل البلدية بتاع النضافة دي جابت لي البلاوي الكتيرة دي.

وردّ طارق ليطمئنه:

- خت الرحمن في قلبك.. أنت لسة في شبابك.. بعدين المسا أوديك المستشفى الفي الوادي وإن شاء تلقى العافية.

قاطعه ود البلولة وهو يحاول أن يجلس ليحادثه:

- وين يا أخوي أنا خلاص شفت الموت بعيوني دي.. وما عندي غيرك في الدنيا دي.. بس وصيتي ليك إنك تبقى قدر المسئولية.. تمسك بيتك تمام وأصلو ما تعاين بجاي ولا جاي.. وتمبش عليك الله تبقى عليه عشرة.. مافي حاجة أخليها ليهو غير البيت ومعاشي دا.. إن شاء يقرأ و يدخل الجامعة ويخلصا.. إحنا ما قرينا وأهلنا ما قرونا عشان كدا لازم يقرو ويغيروا الحال دا. وأمه كمان دي أحلاما أنو تمبش يقرأ الجامعة. بعد الشقى الشافتو في الحياة من غسيل الملابس وتنظيف بيوت العرب والغنيانين في المدينة. أملا كلو في تمبش.. أرجوك يا طارق ما تهمل وصيتي دي.

أكمل ود البلولة حديثه ثم طلب من طارق أن يعطيه ماء ليشرب. وأحضر له طارق كوبًا من الماء وأمسك به من يديه وأسنده ليجلس حتى يشرب. وارتشف قليلًا من الماء ولكنه استفرغ في الحال على ثياب طارق. ثم استلقى على السرير وأغمض عينيه.

ظنّ طارق أن أخاه قد رحل وودع الدنيا فارتمى عليه يبكي دون أن يرفع صوته لئلا ينصدم أفراد الأسرة. ووضع طارق رأسه على صدر شقيقه ليتأكد من أن قلبه ما زال ينبض ونفسه يتردد وأنه ما زال حيًا وما إن سمع دقات قلبه اطمأن ورفع رأسه إلى أعلى وهو يقول:

- الحمد ليك يا رب.. إن شاء الله أوديك المستشفى وتلقى العلاج يا أخوي.. أصلو زول طيب زيك مافي.. وبعدين دا تمشي تخليني براي بعد ما فقدت أخواني كلهم في الحرب..

وبينما طارق في مكانه دخل أفراد أسرته ليلقوا التحية على شقيقه لكنهم وجوده نائمًا و أمرهم طارق بأن يخرجوا حتى لا يزعجوا ود البلولة وينتظروا خارجًا ريثما يستيقظ.

فنهض طارق من مكانه وجلس على السرير الآخر، يسترجع تلك الكلمات التي أوصاه به شقيقه وبدأ يتأمل فيها ويرسم المستقبل.. كيف سيكون حاله غدا رحل.

صغرت الدنيا في عين طارق وهو يفكر في تلك الكلمات التي قالها ود البلولة كأنما كان يعده للفراق والرحيل. كان طارق جالس كأنما يحاول الركض فيصطدم بالجدار ويفكر في الطيران فيصطدم بالسقف وكأنما كل الأبواب أُغلقت. أحسّ بالإحباط الشديد وهو يردد بصوت داخلي:

- معقول ترحل تسيبني يا أخوي.. لا لا.. أنت لازم تفضل معاي.

إن هذا الزمان هو زمانك وإن المكان هو مكانك وإن الأشياء حولي لم تعد تشبهني في غيابك.. وأن مدن أحلامك لن تتسع لي عند الرحيل كيف سأعيش فراقك ووداعك. والذكريات الجميلة التي عشناها، أنسيت

كيف ودعنا والدتنا في البلد. وعدناها بأن نبقى معًا. أترحل وتتركني بمفردي أتجرّع مرارة الوحدة وأعيش آلامها. ما أصعب أن ترحل عن عالمنا والدمع جاري. حرام علينا أن نعيش في هذا العالم وأنت غائب أخي العزيز. تُرى كيف يمكننا أن نعتاد رحيلك. أرجوك لا ترحل والتفت طارق إلى أخيه وصرخ دونما شعور:

- لا لا لا...

حتى استيقظ ود البلولة وركض جميع من الخارج فدخلوا ووقفوا في دهشة ولسان حالهم الدّموع وحديثهم الصمت الرهيب، أنظارهم تجوب السّماء. كأنهم فقدوا ود البلولة وبات الرحيل حزن قائم بينهم كلهيب الشّمس تبخّر الذّكريات من القلب لتسمو بها إلى عليائها وتحدثت نفيسة قائلة:

- مالك يا طارق خير في شنو؟

كانت تمشي ببطء بين المجتمعين إلى أن وصلت ولمست يد ود البلولة. وحمدت الله وشكرته. وتنفس الجميع الصعداء حين قالت: الحمد لله واستطاعوا أن يجلسوا كل في مكان وطلب منهم ود البلولة أن يجلسوا قائلًا:

- تعالوا يا أولادي اقعدوا جمبي هنا..عمكم كويس ما تخافو إن شاء الله حاقوم بالسلامة.. وأجيكم تاني في حلتكم ونقعد معاكم.

و بينما هم يتحدثون جاء تمبش عائدًا من عمله في (الخرصانات) مع المعلم جلال وألقى عليهم التحية:

- السلام عليكم.

وردوا التحية:

- وعليكم السلام..

وقالت أمه نفيسة:

- الليلة جيت بدري.

وردّ تمبش:

- شغل الجمعة بسيط مفروض يكون عطلة.. لكن المعلم جلال داير يزيد قروشو.

وجلس تمبش بجانب والده يسأله:

- أها يا أبوي قيلت كيف؟.. طمني إن شاء الله شربت الدوا؟.. محاسن جات حقنتك وركبت ليك الدرب؟..

وردّ والده وهو ما زال مستلقيًا على فراشه:

- إيي يا ولدي.. محاسن ما بتقصر الله يديها العافية.. جات ركبت لي الدرب وحقنتني.. لكن نقصت دربات وأوية تانية في الروشتة حقت امبارح الكتبا لينا الدكتور .

رد تمبش وهو يمسك بيد والده:

- خلاص يا أبوي معاي قروش بمشي أجيبا وأجي.

قاطعه طارق وهو يسلمه مبلغًا من المال:

- لا يا تمبش امسك القروش دي.. امشي مع كمال جيبو الدرب وباقي الدوا.. وعدّوا على بيت ناس محاسن نادوها تجي تركب الدرب لأبوكم.

قبل أن يخرجا ناداهما ود البلولة طالبًا منهما أن يجلسا ليستمعا لما سيقوله ومن ثم يذهبا لإحضارالأدوية.

أحس تمبش بخوف عظيم عندما طلب منه والده الجلوس ليستمع لما سيقوله. خاصةً عندما تذكر حلمه بالأمس حين رأى في منامه جمع غفير أمام منزلهم يشيعون والده إلى مثواه الأخير ويرددون الدوام لله.. البقاء لله.. الله أكبر و.. لا إله إلا الله.. هم السابقون ونحن اللاحقون.

كان تمبش يتذكر هذه العبارات وتمر عليه ذات الصورة التي رأى فيها الجموع في مشهد الوداع. كأنما الرحيل بات واقعًا وبعدها أصبح كل شيءٍ بطيء، أصبحت الدّقائق والسّاعات حارقة، وأصبح يكتوي بثوانيها ولحظاتها القاسية. وراح ينظر إلى صورة والده أمامه، و استرجع ذكرياته الجميلة واللّحظات الحلوة الّتي جمعتهما، كم فرحا، وكم بكيا، وكم واجها صعوباتٍ اجتازاها معًا، لكنه علّمه أن يثبت في وجه الصعاب والتحديات.

جلس تمبش بجوار والده ليستمع إلى ما سيقوله وكان ذلك أصعب شعور مر به في حياته. وهو يحاول أن يظهر الابتسامة دائِمة على وجهَه لكنه كان يتألم من الداخل، وهو فاقد للفرحة في قلبه. فقد كانت لحظات عصية وما أصعب أن يبكي بلا دموع. وأصعب أن يشعر بضيق، وكأنّ المكان من حوله يضيق. يؤلمه الصمت وتؤلمه الحياة وتؤلمه عواقب البوح. يا ليت الزّمان يعود، والّلقاء مع والده يبقى للأبد دونما وجع أو أنين.

بدأ ود البلولة يسرد حكاية عمله في البلدية منذ أن كان عاملًا ينظف الطرقات ويجمع القمامة ويتقاضى راتبًا ضئيلًا لا يكفي حاجته لكنه يعتمد على الله سبحانه وتعالى. لم يستطع أن ينال حظه من التعليم لعدم توفر المال، مما جعله يعمل في (البلدية) حتى شاخ دون أن يدّخر شيئًا لابنه الوحيد سوى منزله ومعاشه. و بدأ يوصي شقيقه طارق:

- يا طارق يا أخوي بكلمك قدام مراتك وأولادك أنو تبقو عشرة على بعض.. العمر ما مضمون.. وأنا راقد لي شهرين زول جاني من ناس الشغل مافي.. غير العمال وناس الاتحاد.. وبالذات المدير الجديد ما جاني خالص ولا قال انقل الزول مستشفى خاص ولا نديهو قريشات بدل علاج.. دا زول فقري بستعبد الناس وبكابر وفاكر روحو سيد البلد ومافي أحسن منه، لكن قدرنا نجيب راسه بعدما كونا اتحاد عمال البلدية بقينا نقلع حقنا.. والداير أقولو أنو حقك لازم تقلعو ما تخلي للناس.. والعيال ديل بقدر المستطاع تحاول تعلمم إن شاء تبيعو بيتي

دا.. وتقعدوا في بيت واحد.. وكل العيال يكملوا التعليم.. ضروري جدًا.. ما يجو يتعبو زي ما احنا تعبنا.. أصلو في البلد دي الما عندو ضحر بنجلد على بطنو.. احنا ما عايزين عيالنا يرحو شمار في مرقة.. وتمبش ما يعرس إلا بعدما يكمل الجامعة ويلقالو شغل كويس ويأمن مستقبلو ومستقبل وليداتو الجايين بعد داك يعرس.

كان ود البلولة يعلم بأن تمبش يلتقي بمحبوبته شيماء سرًا لكنه كشف أمره بعد أن راه يمسك بيد شيماء ليقطعا طريق (الزلط) في إحدى الأمسيات وهما خارجان من منزلهم. لذلك كان ود البلولة يشدد على أن يكمل تمبش دراسته دون أن ينشغل بأمور أخرى يراها تافهة تصرفه عن الهدف الأساسي، وحتى لا يعيد تلك المرارات التي مروا بها في حياتهم.

التفت ود البلولة إلى زوجته قائلًا:

- شوفي يا نفيسة تبقى عشرة على روحك.. وأي شيء احتجتيهو أسألي طارق وما تخجلي خالص منو..

شعر الجميع بأن وصية ود البلولة هي الأخيرة له في الحياة و ربما لن يروا وجهه مجددًا. خاصةً عندما بدأ يتحدث بصوت منخفض ويتحدث عن الموت والرحيل.

بدأت الذّكريات تجول بشجونها في خاطر الجميع ومن أجلها أدمعت عيونهم وحضرت مشاعر الألم والوحشة التي ستفرق بينهم بعد

أن كانوا معًا دائمًا يتقاسمون الأفراح والأحزان، وكانوا دائمًا يحاولون أن يسرقوا من أيّامهم لحظاتٍ جميلة، يحاولون أن تكون هذه اللّحظات طويلة، يحاولون أن يحقّقوا سعادةً ولحظات مرح دائمة وأن يبقوا دائمًا معًا لآخر العمر، لكن لم يخطر ببالهم أنّ اللّقاء في هذه الحياة لا يدوم، وأنّ الموت هو المخرج من هذه الدنيا، وأنّه ليس بيديهم حيلة، واكتشفوا أنّ كل الأبواب مغلقة وأنّ الرجاء لا أمل فيه وأن من أحبوه كثيرًا لن يبقى معهم طويلًا وأن أيامه ولحظاته في الحياة باتت معدودة.

بعد أنْ أكمل ود البلولة حديثه طلب أن يذهب تمبش وكمال ليحضرا الدواء ويخبرا محاسن الممرضة بأن تأتي لتركيب (الدرب) وحقنه.

قبل أن يتحركا كان ود البلولة يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يشكو الآم في جسده. أغمض عينيه وظنّ طارق أنه قد نام كما كان يفعل بين الفينة والأخرى. لكنها كانت لحظة الوداع الأخيرة ليرحل تاركًا فراغًا كبيرًا وحزنًا عميقًا في أفراد الأسرة الذين أحبوه كثيرًا. سيبقى رحيله هو الأنين، وستبقى ذكرياته قاموسًا تتردّد عليه لمسات الوداع والفراق. فقد كان رحيله مرًّا أحتضن فيه جرح الزمان وسافر وسط هبوب الرياح في صقيع الأمطار فلم تبق لهم سوى ذكرياته.

أجهش الجميع بالبكاء وارتفعت أصواتهم وسمع الجيران أصواتهم وجاءوا مسرعين. وكانت النساء يبكين بوجع وحزن عميق وتتعالى أصواتهن.

- البلولة الطيب مات..

- مات خلى تمبش براهو..

- ليه يا البلولة تمشي تخلينا..

- كانو كان مستني أخوه يجي.. واااي واي يا ناس..

- اجتمع أهل القرية بعد أن وصلهم خبر وفاة ود البلولة يرفعون الفاتحة ويعزون بعضهم.

- البركة فينا.

الدوام لله ..البقاء لله

أغلقت المحلات في القرية أبوابها بعد رحيله، ونام سكانها، وأصبحت شوارعها خالية من المارة، فقد كان وجوده حياة لها ولا يستطيعون أن يروا شيئًا بعيونهم بعد بفراقه، فهي أي القرية لا تنظر لسواه رجلًا شامخًا سمحًا طيبًا كريم الخلق والأخلاق. وبعد وداعه ظلوا يتقاسمون الحزن والألم في قلوبهم.لا يغيب عن مخيلتيه، فصورته عند الوداع تلاحقهم في كل مكان، وهمساته ما زالت عالقة في آذانهم.

كان تمبش يراقب المشهد في ذهول مصدومًا يذرف دموع الوداع في صمت.

– لا تودعني يا أبي وترحل، خذني معك، فلا حياة بدونك. ليتك تأخذني معك، لا تتركني عرضة لرياح الزمن، تعصف بي حزنًا وقهرًا من كل جانب.

أغمى عليه وحمله بعض الشباب وصبّوا على وجهه الماء حتى يعود إلى وعيه. لأنه لم يعتاد على غياب والده.

أمر طارق بعض الشباب بأن يذهبوا إلى المقابر لتجهيز القبر لدفن المرحوم ريثما تنتهي عملية غسله وتكفينه. ومازال الناس يبكون ويلقون نظرات الوداع على فقيدهم ود البلولة.

***

حمل المشيعون الجنازة بالسرير الذي ظلّ راقد عليه طيلة فترة مرضه ملفوفًا بالكفن الأبيض وهم سائرين على الأقدام لقرب مسافة المقابر من منزل المرحوم وهم يرددون (إنّا لله وإنّا إليه راجعون) و (لا حول ولا قوة إلّا بالله) وهكذا من عبارات تُقال عند الوفاة. وتركوا النساء وهن ما زلن يرفعن أصواتهن وقد صحلت حناجرهن من البكاء.

إلى أن وصلوا المقابر ووضعوا الجثة في القبر على الجَانْبِ الأيمن ورأسه متجهًا إلى القبلة.

بعد الفراغ من سَدِّ اللّحد بوضع الطوب المصنوع من الطين، بدأ الشباب يدفنون القبر بالتراب ويتبادلون في ذلك ورشّوا القليل من الماء ووضعوا قطعتين من الطوب وكتبوا لافتة صغيرة عليها اسم المرحوم وتاريخ وفاته. ثم رفعوا الفاتحة مجددًا.

كانت تلك اللحظة أشد قسوةً وألمًا على الناس أكثرُ مِن وفاةِ صديق الكل البلولة. كان أقربَ مِن أخٍ للجميع. كان صديقًا وفيًا صادقَ الوعدِ لا يخون لآخرِ لحظةٍ قَبل أن يأخذهُ الموت مِن صديقه جادين الترزي الذي كان دائم الحضور بمنزل الفقيد.

على الرّغمِ مِن أنّ الموتَ حقٌ على كُلِ إنسان، إلا أنّهُ الأقسى والأصعب والأفجَع على النفسِ، ولم يتبقى لهم سوى تذكُر الذكريات

التي كانت تجمعهُم والدعاء له في قبره. هكذا كان يردد جادين وهو يواسي تمبش بعد أن ألحّ على البقاء بالمقابر بعد أن انحَنى على رُكبَتيه عِند قَبرِه مِن غَلاتِه وألم فراقه وتأثره به، وبَكى النّاسُ وهم يقولون:

- قوم يا ولدي ما تعذب أبوك بالبكاء..

- دا دربنا كلنا..

- ادعو ليهو يدخل الجنة..

بدأت خُطى صديقهُ جادين تتثاقَلُ فَوقَ التّراب، أصبَح مُستَغربًا ينتَظِر كَلمةً ويَمسحُ لأجلِها دَمعاته. فجاء عدد من الرجال وأمسكا بهما ثم عادوا جميعًا إلى المنزل لنصب سرادق العزاء.

***

عاد الجميع ومشاهد الحزن تسيطر عليهم وعلى المكان بموت البلولة الذي يرونه نهاية العالم، خاصةً عند تمبش وصديق والده جادين الترزي أن يموتَ كُل جميل، أن يصحو ذاتَ صباحٍ ولا يجِد صديق أقرَب إليه من أخ. إنها نهايةُ العالم أن يفقدَا إنسانًا عزيزًا. نهاية العالم أَن تُفارِقهما روح عزيزة ولا تعود أبدًا. لم يصدق جادين أنّ صديقه قد رحل بهذه السرعة ويناجي نفسه وكأنما يريد أن يقول:

- لماذا يا صديقي، لماذا ذهبت بهذهِ السُرعة، لحظاتٌ وكأنك لم تكُن هُنا، كأنك لم تأتِ ولم أعرفك، وكأنك لم تدخل إلى هذهِ الدُنيا، آلمني فُراقُك يا غالي، كل لحظة تأتيني ذِكرياتُك، في لمحِ البصر تَمرُ كُل المشاهد دَفعةً واحدة، ولا أدري هل تتسابق لتواسيني، أم أنها تخشى من أن تطولَ لحظاتِ الألم فتقتلني.

كان الناس يدعون له بأن يكون من أهل الجنة ويسكنه الله فسيح جناته مع الصديقين والشهداء.

***

نُصِبَ (صيوان) العزاء الذي أستأجر من محلات الهدى للأفراح وجلس الناس يعددون مآثر الفقيد، فدخل الشباب بيت الجيران حيث يواسون تمبش ويعدون الشاي وأما النساء بقين في منزل المرحوم مع زوجته وبقى الرجال في الصيوان الذي نُصِبَ أمام المنزل في الميدان الكبير.

جاء الناس من كل حدب وصوب ليعزوا أسرة الراحل. وحضر زملاء المرحوم وأصدقاؤه حتى مديره في العمل جاء بسيارته الفارهة وأوقفها وصافح الجميع ورفع (الفاتحة) وتبادل أطراف الحديث مع الناس وهم يحكون فيما بينهم حكايات ود البلولة ويعددون مآثره.

كان جادين يحكي لهم عن صديقه الإنسان الذي رحل ولم تكتمل فرحَتُهُ في هذهِ الدنيا، إنسان عاش للناس، فَرِحَ لَهُم وواساهُم وأَعَان الكثيرين منهم، يوم كان يأتي إليّهو هو مبتسم، اشتاق جادين لأن يسمع منه تلك الكلمات التي كان يواسيه ويُشَجِعُه بِها.

كان إنسان واسع الصدرِ وحسن الخلق. رحل صديقه وتركه وحيداً يصارِع أمواج المآسي.

انقضت ثلاثة أيام حزينة في عمر القرية وافترق الجميع وبقيت أسرة طارق وصديق المرحوم جادين الترزي الذي ظلّ مرابطًا في تلك الأيام الحزينة. لم يبرح مكانه إلا عندما يريد أن يغير ثيابه.

بقيت أسرة طارق في منزل المرحوم شهرًا حتى مطلع يوليو من ذلك العام ثم عادت إلى حيث تسكن.

رغم الظروف التي مرّ بها تمبش إلا أنه لم ينسَ محبوبته شيماء التي أحباها بصدق وإخلاص. فقد كانت تسنده في كل الظروف التي مرّ بها، لم تتخلَ عنه يومًا حتى في أحلك الظروف.

كان تمبش قد قضى يومًا جميلًا مع حبيبته شيماء حين التقيا في كافتيريا (المحبة) بالسوق الكبير وشربا معًا من عصائر المحل.

كانت شيماء ترتدي فستانها المخملي الخفيف الأسود اللون والذي يحمل رسومات قلوب كثيرة باللون الأحمر والذي يُظهر نهديها ومفاتن جمالها.

لم يرّ تمبش سوى بسمتها التي زينت وجهها البريء. شدته بسحرها الأنيق وعطرها الفوّاح وصوتها الطروب شدته لكي يبقى معها أكثر.

بدأ تمبش يقترب اليها ليدقق في تفاصيلها خاصة في شفتيها الجميلتين التي وضعت عليها احمر الشفاه فبات تمبش ينظر ويدقق ما بين نهديها و شفتيها و عينيها الساحرتين مسمراً غير قادر على الكلام سوى ان يتمتم بعبارات لا يفهمها سوى العُشاق . تارة ينظر الى تلك الشفاه و تارة أخرى إلى تلك العيون التي تمنحه نظرة خجل و حبٍ . فغرق في التفكير و التأمل فيها . في دموعها ... نظراتها الساحرة و غمزاتها القاتلة و التي قتلت كثير

من العشاق في مدن الحب العامرة . وكأنها نظرات الوداع تحاول شيماء ان تعطيها له لتبقى ذكرى خالدة عنده شراعاً للأمل .

مد تمبش يده و هو يمررها على فخذيها ببطء عندما كانا جالسين على الكراسي في الكافتيريا و حاول ان يضمها اليه و ضربته شيماء على جبنه قائلة:

– يا تمبش انت ناسي انو احنا في الكافتيريا ؟... و الناس شايفنا .

رد تمبش و هو ينظر اليها :

– ما تخافي يا حبيبتي ... الركن للأحبة ما في زول بيعدي بيجاي ...الا لمن تطلب حاجة . قالت شيماء في خوف وهي تغطي وجهها (بالطرحة) :

– خلاص قوم جيب لينا حاجة نشربا .

كان تمبش يرتدي بنطاله (الجنيز) الأزرق و قميصه الأبيض الذي لايرتديه الا في المناسبات و البرامج الرسمية لأنه لا يملك غيره من (غيارات المرقة) .

لا يدري تمبش كيف سيقضي أيامه بعد وداعها إذا سافرت كما أخبرته مُسبقًا.

أخرج تمبش النقود من جيبه ووضع الصور التذكارية التي أعطتها له شيماء وضعها في الجيب الخلفي للبنطال. كانت تلك الصور تجمعهما وبعض الصور الخاصة بها.

ذهب إلى (الكاشير) وطلب كوبان من عصير الليمون. ثم عاد ليجلس مع محبوبته في ركن الأحبة ليعيشا لحظاتهما الأخيرة.

تحدثا في أمور كثيرة تخص مستقبلهما وبعد جلستهما الغرامية ذهب تمبش مع محبوبته إلى منزلها.

في طريقهما حاول أحد ابناء الحي الذي تسكنه شيماء اعتراض تمبش مظهرًا له القوة و دار حوارًا ساخنًا بينهما قبل أن يضربا بعضهما.

حاول محمد القوري تهديد تمبش فوقف أمامه بجسده الضخم وعضلاته العريضة وصوته الكبير قائلًا:

- هوي يا زول الجابك شنو هنا؟

وردّ تمبش بعدما تقدم وجعل شيماء تقف من خلفه:

- الواطة دي حقة أبوك.. ولا مكتوبة باسمك؟

ردّ محمد القوري غاضبًا:

- جاي من حلة تحت كمان جاي تسوي حقارتك هنا.

رسم محمد القوري خطًا على الأرض وقال:

- كدي أقطع الخط دا عشان نوريك الليلة.

ما كان من تمبش إلا أن يضربه حتى لا يتطاول عليه. فتقدم نحوه وبقبضة يده لكمه لكمة قوية جعلته يرى النجوم في عز النهار، واستمر

في ضربه إلى أن نزف منه دم وسقط على الأرض. و مازال تمبش يضربه ويقول وهو غاضبٌ:

– الكركدي بتاعك دا بسقيك ليهو.. عشان تاني يا دين تفتح بوزك دا.

حاول تمبش أن يثبت قدراته في الدفاع عن نفسه أمام محبوبته خاصةً أن محمد القوري يهدد كل قادم لذلك الحي ليتنزع منهم فتياتهم.

ظنّ محمد القوري أن تمبش سيكون صيدًا سهلًا كما فعل مع شبان آخرين. فكانت محاولته تلك حتى يحظى بحب شيماء التي ظلت ترفضه منذ أعوام عدة رغم أنه كان يكتب لها رسائل كثيرة.

مع استمرار ضرب تمبش لمحمد القوري الذي كاد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة لولا بكاء شيماء وصراخها الذي جمع المارة وأصحاب (الكاوارو) الذين كانوا في طريقهم لملء براميلهم بالماء.

استطاعت الجموع المتجمهرة أن تنقذ محمد القوري من قبضة تمبش الحديدية.

فمضى تمبش في طريقه مرفوع الرأس أمام محبوبته شيماء وهما يمسكان أيدي بعض ولا يكترثان للناس الذين تجمهروا.

بعد هذه الحادثة تأصّلت العلاقة بين تمبش وشيماء وأصبحت شيماء تهتم أكثر به رغم أن والدتها كانت ترفض أن تراهما معًا، لأن تمبش ينتمي

لطبقة فقيرة من عامة الناس بالرغم من أنهم ينتمون لنفس الطبقة ولكن لأن وضعهم المادي أفضل يظنون أنهم من طبقة الأغنياء. أما شيماء فتعتبره بطلها وفارس أحلامها الذي ينقذها ويحميها من كل (عوارض) الطريق حيث يكثر الشباب الذين يعاكسون الفتيات في محطة (قِف).

أحست شيماء أن أيامها في ذلك الحي اقتربت على النهاية وأنها سوف تتخلص من الكابوس المرعب محمد القوري، لكنها سوف تحمل معها جرحًا عميقًا في داخلها وهو فراق ووداع تمبش الذي دافع عنها في ملحمة بطولية نادرة استبسل وقاتل قتال الرجال من أجلها. وكيف لها أن تتركه وحيدًا بعد أن عاشا معًا أجمل ليالي الحب والعشق. وكانت تضع يدها على خدها وتنظر إليه تريد أن تقبّله والدموع تسيل من عينيها وهي تقول:

- أصلي يوم حشوفك تاني.. دي ما النهاية ولازم حبنا يستمر حتى لو أنا بعيدة ما بقدر أنساك خالص.. أنت حتفضل لي وأنا حاعيش ليك عمري كلو.. أوعدك يا تمبش..

ظل تمبش يستمع إليها غير قادر أن ينطق بكلمة سوى:

- أنا بحبك يا شوشو.

ثم أردف بكلمات بعد أن اقترب إليها:

- أوعدك إني أفضل ليكي.. بس أنتي خلّي بالك من نفسك.. أنا عارف أنو الناس في بلاد برة هناك بتنسى أهلا وأصحابا وأحبابا كمان.

كان تمبش يدري بما يجري في دول المهجر نتيجة اطلاعه على المجلات التي كان يداوم على قراءتها وبتقربه من أستاذه تاج السر وعمه طارق واللذان كان يتعبان من أسئلة تمبش التي لا تنتهي.

أمسكت شيماء بيد تمبش وهي تحدّث نفسها:

- يساورني إحساس في داخلي بأنني سأبتعد يا سيدي ولكنني لا أعرف كم تبقى من عمري.. وهل سنلتقي يومًا ونعيش كما ينبغي؟.. كل يقيني أنني سأبقى لك ولك وحدك يا سيدي..

صارت شيماء تمسك بيد تمبش إلى أن وصلا إلى المنزل وفتحت الباب الرئيس ودخلا دون أن يشعر أحد بهما.

قادته شيماء رويدًا رويدًا إلى أن دخلا الصالون بالقرب من باب الشارع حيث لا أحد بالمنزل. واصلت حديثها الغزلي وتمبش يتصبب عرقًا لا يعرف ماذا يقول وكان (كالأطرش في الزفة) يخاف أن يراهما أحد وتصبح فضيحة كبرى لأن الجميع يعرفه بحسن الخلق والمعشر.

أبحرت شيماء في حديثها وأفصحت عما بداخلها من مشاعر لأنه قد أسرها بحبه يوم أن رأته وجُنت به. خرج تمبش من صمته بعد أن اقتربت إليه شيماء لتقبّله، ألقت بنفسها على صدره ومررت يدها ببطء على جسده..

انتفض تمبش قائلًا:

– لكن يا شيماء ناس البيت لو لقونا نقول شنو؟.. واحنا اتنين مافي تالت لينا.. غير الشيطان.. أقصد حبنا..

ردت شيماء وهي تضع أصبعها السبابة على فمه:

– ما تخاف يا حبيبي ناس البيت طلعو.. أمي مشت تشتري حاجات السفر الباقية وأبوي مشى يجيب كروت السفر من الخرطوم.. اخد راحتك يا حبيبي، وبعدين أنت نسيت أنو إحنا مسافرين واحتمال ما نتلاقى إلا بعد زمن..

طمأن هذا الكلام تمبش فاقترب منها واحتضنها، تبادلا القُبل، حملها تمبش ووضعها على السرير وخرج ليغلق باب الشارع كأنه في بيتهم. عاد مسرعًا ووجد شيماء قد نزعت ثيابها مستعدة له. ونزع تمبش بنطاله دون أن ينزع قميصه حتى يستطع أن يتدارك الأمر إذا حدث أي طارئ. اقترب منها وقبّلها و ..

وبعد أن أكملا تلك اللحظة الجميلة انتفض تمبش وشيماء تقول:

– يا سلام عليك يا بطل.. عمري ما عشت لحظة زي دي، يا ريد تفضل لي أنا بس.. وما تدي لأي واحدة تانية الاديتني ليهو دا.. أنا عارفة كتيرات الجاريات وراك.

بينما تمبش يرتدي بنطاله قال:

– حافضل ليك يا حبي.. ما بعيش أنا لغيرك.. أنتي وبس.

ثم عاد ليجلس بجابنها على السرير بعد أن نهضت هي الأخرى وغيّرت (الملايا) المفروشة على السرير لإخفاء أي أثر للجريمة حتى لا تفضحهما.

ودّعها تمبش بقبلات الحب وأحضان العشق ودموع الفراق. وخرج ليمضي في طريقه على أمل اللقاء.

استرجع تمبش تلك اللحظات في طريقه إلى منزلهم. يحدّث نفسه معاتبًا ظروفه التي تنزع في كل يومٍ أفراحه. تسائل:

- لماذا دائمًا تأتي أشيائي هكذا؟..

وصل(حلتهم) ووجد أصحابه قدروة والبوش في انتظاره في حي المقابر بعد أن غاب عنهم كل النهار، وهاجماه بسيلٍ من الأسئلة:

- يا زول أنت وين من الصباح.. مشينا البيت ما لقيناك وعند أستاذ تاج السر برضو مافي.. الظاهر مشيت لحبيبة الروح شوشو..

نظر إليهما تمبش قائلًا:

- مالكم مستعجلين يا أخوانا.. أنا جاي أحكي ليكم كل حاجة.. شكرًا ليكم كتيرعشان أنتو بتسالو مني.

ردّ صديقاه:

- أصلنا ما عندنا غير بعض..

ذهب الأصدقاء معًا وجلسوا في المقابر خلف المدرسة الجديدة مفترشين الأرض ليحكي لهما تمبش قصة وداعه لمحبوبته شيماء في تلك الليلة.

بدأ تمبش يقص عليهم حكايته وبحسرة فراق محبوبته شيماء التي ما زالت تتجول بجمالها بخاطره وتتنزه كما تشاء تعبر كل الطرقات دون إذن ولا تأبه لإشارات المرور الحمراء. ولم يأتِ عليها غبار النسيان رغم طول الزمن وعبير تلك الأمكنة يغشاه مع فجر كل صباح يأتي ذلك وهو ينتظرها عند ذاك المكان الذي اعتادا أن يلتقيا فيه، وظلّ يشهد أيامهما ولقاءاتهما السرية والجهرية منها.

أيام كانا في عز شبابهما يفرحان ولا يعرفان أي أتراح وأي أحزان، ويرحلان معًا صوب شواطئ الممكن حينما يحلمان أحلام المستحيل في دنيا المباهج والخيال. ويشتاق تمبش كثيرًا أن يعانق المجد القادم بلهفة وشوق شديدين رغم كآبة الزمن الأليم والحزن القديم وكان يحكي لهم وتختلجه مشاعر الحزن قائلًا:

- يا جماعة شيماء خلاص راحت.. حتسافر وتسيبنا ماشة لعالم تاني.. واحتمال تاني ما نتلاقى.. بعد ما اديتا الحب والحنان.. وكان أملي نتزوج ونكمل حياتنا زي باقي الناس ونجيب عيال يملو البيت وأسميهم جيفارا وقرنق وغبوش وكفاح ونضال وأنادي عليهم وأنا راقد في العنقريب وسط الحوش.. تعال يا ولد.. وامش يا بت وحكاااية.. يا سلاااام.. غايتو يا ناس إحنا مولودين للشقى والتعب والهم، معقول خلاص شيماء راحت؟

قاطعه البوش:

- خلي عندك أمل.. ربنا يسهل الأمور وشيماء ترجع زي ما كتار اتغربو ورجعوا للبلد دي.. أصلوا تمشي وين بعد حبكم الطويل دا.. وأفلامكم الهندية الكتيرة دي.. وبعدين أنت ناسي حكاية ناس ميجو وتيمو بعد اتناشر سنة من الاغتراب جاء راجع وعرسا وهسة عايشين في نعيم؟

تدخل قدورة بعد أن كان صامتًا:

- مهما كانت الظروف أكيد في يوم حتتغير الأحوال.. وعمرو الفقير ما بموت فقير حبوبتي الله يرحما كانت بتقول لينا كدا.. والمثل بيقول الحي مصيرو يلاقي.. ولا كيف يا البوش؟

وردّ البوش:

- صدقت يا أخوي كلام صاح.. أكيد بنتلاقى تاني مع شيماء ونزوجا ليك يا تمبش بس أنت خلي عندك حبة أمل أنكم حتتلاقو تاني..

ظل تمبش متحسرًا وهو الذي لم يحب سواها فقد أحبها لدرجه أنها عندما تغيب عنه يغيب معها كل شيء كأنما تركته وحيدًا لكنه كان يصبر على أمل اللقيا ويصبّر نفسه بعبارات العشاق:

- أها يا شيماء.. حتى لو كنتي بعيدة عن نظر العيون فطيفك لا يفارق القلب والعقل.. أنتي حتفضلي ساكنة فيني.. وحافضل أعيش ليكِ عمري كلو يا ست الروح.

اقترب قدورة نحوه ونظر في عينيه ثم قال:

- شوف يا تمبش أنت ما تقلق.. وأنا متأكد شيماء حترجع.. وهي بتحبك شديد ما أظن تتخلى عنك بالسهولة دي.. وبعدين دا حال الدنيا يا بطل.

التفت اليه تمبش مبتسمًا ابتسامة باهتة:

- ما أظن شيماء تجي تلاقينا على قيد الحياة.. دا لو ما لقتنا احنا راقدين في واطة الله دي مع الناس الرحلو قبالنا.. الفاتو خلونا وارتاحو من هموم الدنيا وجوطتا.

اقترب البوش منهما أكثر وتدخّل معهما في الحديث:

- يا جماعة ختو الرحمن في قلبكم.. شيماء تمشي وتجي بالسلامة.. كلها أيام وترجع.. والسنين بتعدي وبتجري زي الريح.

ردد تمبش:

- آمين يا رب.. يسمع منك ربنا.

تعانق الأصدقاء الثلاثة عناقًا حارًا وقال تمبش:

- ربنا يخليكم لي.. وما يحرمني منكم.

- يلا نقوم نمشي الواطة فللت.

افترق الأصدقاء كل في طريقه على أمل اللقاء.

***

بعد غيابٍ دام شهرًا عن الحي الشعبي عادت أسرة طارق متعبة ومرهقة لبُعد المسافة، استقبلهم محمد صاحب دكان الحسن والحسين وهو يستلم بعض البضائع الذي عندما رآهم ترك ما كان يفعله فجأة ليعزيهم رافعًا كلتا يديه بالفاتحة قائلًا:

- البركة فيكم.. الدوام لله.. ربنا يخفّف عنكم مصائبكم، وأخلف لكم الأفضل وطمأنكم بالخير والرؤيا الحسنة عليه.

وردت أسرة طارق وهم يضعون أغراضهم على الأرض بعد أن أنزلوها من العربة:

- آمين يا رب.

عند المساء جاء زملاء طارق بالحي منهم صديق وحسن وحسين معهم عبدالكريم صاحب الدكان. الذين غابوا عن العزاء جاءوا معزين له. وقد كان الأستاذ خالد يتقدمهم وتحدّث مقدمًا اعتذاره قائلًا:

- تقبّلوا عزاءنا وخالص أسفنا على ما فُجِعنا به من نبأ، صبّركم الله والبقاء لله.. نسأل الله أن يصبركم.. ويرحمه رحمة واسعة.. ويحسن إليه.. ويغفر لكم وله.. كلنا أمانة مستودَعة حتى يأتي أمر الله فيأخذ وديعته.. فلا اعتراض على أمر الله.. فاحتسبوا واصبروا.. جزاكم الله خيرًا على حسن إكرامه، وصبركم على فراقه. نسأل الله أن يعينكم على السلوان

والصبر والتعويض من فضله وكرمه عليكم بالخير ويرحمه ويعفو عنه إنّه هو العفو القدير..

ثم جلسوا في فناء المنزل يتساءلون عن أسباب وفاته، وكان طارق يجيب على أسئلتهم وهم يحتسون الشاي الذي أعدته لهم صباح.

لم تمضِ أيامُ من عودة طارق إلى منزله حتى أُعلنت نتيجة امتحانات الشهادة السودانية لذلك العام وكان تمبش ضمن قائمة الطلاب المتفوقين. وقد أحرز نسبة كبيرة تؤهله للالتحاق بإحدى الجامعات المرموقة والدراسة بالكلية التي كان يحلم بها وهي كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.

تفوق تمبش بفضل والده الذي نجح في زرع فكرة النجاح في عقله وبتشجيعه المستمر له وتحفيزه دومًا بأنه وُلِدَ لينجح، كما أن تمبش كان منظمًا ومستقيمًا في حياته، وملتزمًا وفائق النجاح في عمله. يعمل باستمرار وبجهد مضاعف ليوفر أيضًا مصروفه الشخصي لشراء بعض الكتب والمذكرات التي تعينه على النجاح والتفوق. كما كان لأستاذه تاج السر فضل كبير على نجاحه وهو دائم الحضور في منزله يشرح له بتركيز، قاده للتميز، من خلال تنظيم أوقاته، وتطوير قدراته خاصةً في اللغة الإنجليزية التي كان يدرّسها له الأستاذ تاج السر.

تأثّر تمبش بأستاذه تاج السر الذي ظل لصيقًا به منذ نعومة أظافره. يعلمه ويدربه ويعده للمستقبل. استرجع في لحظة كل ذكرياته معه عندما استلقى

على سريره بعدما وصل المنزل في احدى أيام الصيف يراقب حركة النجوم ويتأمل جمال القمر وتمر عليه صورة شيماء محبوبته التي ستفارقه.

استرجع تمبش لحظاته مع الأستاذ تاج السر حين كانوا يجتمعون في منزله يلعبون (الكتشينة) ويفكرون ويتناقشون في أمور شتّى. واسترجع كذلك حواره المطوّل حين ذهب إليه ليسأله عن أشياء كانت غير واضحة بالنسبة إليه.

ترعرع تمبش على يد أستاذه تاج السر، أستاذ اللغة الإنجليزية المشهور والذي تسبقه أخلاقه أينما ذهب. علَّم تمبش الموسيقى والعزف على الجيتار حتى بات يتقن العزف عليه. وبدأ يخرج مع فرقة الأمل لإحياء الحفلات في الأحياء والمدارس المختلفة. وكانت أول أغنية تعلم تمبش عزفها وكان دومًا يدندن بها على زملائه بصوته الجهور أغنية:

(أنا أفريقي أنا سوداني)

بالرغم من إنه كان يعشق أغنيات كثيرة مثل أغنية (أصبح الصبح ولا السجن والسجان باقٍ) وبلغته العربية الفصحى لم يكن يعرف أصحابه ما يتغنى به خصوصًا أبناء عمومته الذين نزحوا من مناطق الحرب، لكنهم كانوا يتفاعلون معها حين يشرح لهم تمبش مفرداتها.

أصبح أصدقاؤه وإخوانه يشجعونه باستمرار على أمل أن تظهر موهبته للناس ويحظى بفرصة في التلفزيون القومي وتصل شهرته للمسارح العالمية.

تذكّر تمبش أستاذه تاج السر الذي لا يضرب طلابه كثيرًا لكنه إذا ضرب أوجع. والذي كان يقدم لهم محاضرات وعظات طويلة. وذات مرة أثار تمبش وزملاؤه خالد تية وفيصل جادين، شغبًا في المدرسة حين رفضوا المشاركة مع اتحاد المدرسة في المسيرة المليونية التي ينظمها الاتحاد لدعم الجهاد ضد المتمردين، وقد أمر مدير المدرسة أحمد طارق أن يُضرب كل من يخالف أوامره بعدم المشاركة في المسيرة بل يُحرم من الجلوس للامتحانات التجريبية واستدعاء ولي أمره وكتابة تعاهد بعدم تكرار الأمر.

رأى تمبش عدم المشاركة في المظاهرة لأن الأستاذ تاج السر أقنعه أن الجهاد المقصود هو قتال أهلهم في (البلد) وإن أبناء عمومته الذين نزحوا من مناطق الحرب قد فرّوا من جحيم الحرب التي تشنها الحكومة ضدهم. وإن مشاركتهم تعني تأييدهم لحرب الدولة عليهم وطلب منهم أن يتغيبوا عن الحضور في ذلك اليوم ويختلقوا أي عذر لإقناع المدير.

وافق تمبش وزملاؤه خالد تيه وفيصل جادين على عدم الحضور في ذلك اليوم وما كان من المدير الذي وقف في الطابور الصباحي يأمر بضرب المخالفين عن حضور المسيرة. وكان بعض الطلاب يشيرون بأصابعهم إلى تمبش وفيصل وخالد وعدد من الطلاب الذين لم يشاركوا لأسباب مختلفة.

كلّف المدير الأستاذ تاج السر بضربهم، وهنا اختلط الحابل بالنابل وأصبح الأستاذ تاج السر في ورطة لم يستطع الخروج منها سوى بتنفيذ

العقوبة رغم عدم اقتناعه بما سيفعله بطلابه. وقد فكر الأستاذ في تنفيذ العقوبة ومنها الاعتذار لهم في الحي عند المساء. لأن أستاذ تاج السر يعرف طلابه جيدًا كما أنه كان يسعى جاهدًا لإقناعهم بالانضمام لحزب الأصلاء الجناح السياسي لحركة الزنوج الأحرار الثورية التي تقاتل الحكومة، بعد أن تمردت الكتيبة 16 من الجيش حين رفضت الحكومة صرف مرتباتهم.

كان حزب الأصلاء ينشط وسط الطبقات الفقيرة وعامة الشعب لأنه يتبنى قضاياهم ويرون أنه يمكن أن يحقق لهم أحلامهم من حرية، كرامة وعدالة. كان المنتمين لذلك الحزب الذي يتزعمه السيد ميرفو أغلبهم من مرافيد الجيش الذين تم تسريحهم عندما جاء حزب الإصلاح الإسلامي واعتلى السلطة في البلاد عبر انقلابه العسكري رفد كل أبناء الطبقات الفقيرة والكتل السوداء التي يعتبرها طابور خامس وخلايا نائمة في العاصمة والتي يجب دحرها.

كان تمبش يحاول التفكير في أمر الجهاد حتى يجيب على أسئلته التي جعلته يخوض حوارًا مطولًا مع أستاذه تاج السر في منزله ذات يوم في (حلة فوق) بسبب العلاقة الطيبة التي كانت تجمعهما جعلت أستاذه تاج السر يفتح قلبه لأسئلة تمبش النارية حول الجهاد في سبيل الله، والشعارات الدينية التي كانت تُرفع والبرامج الموجهة لاستقطاب الشباب للانضمام لصفوف القوات التي تُحارب الكافرين والمارقين.

سأل تمبش أستاذه تاج السر:

- يا أستاذ الجهاد ضد منو؟.. وفي ياتو دولة بتحاربنا؟.. ولا الحاصل شنو بالضبط.. مكرهننا جهاد نصر شهادة.. وكلو يوم أغاني جهادية في طابور المدرسة.. ممكن تفهمني يا أستاذ؟..

صمت أستاذه قليلًا وتلفت في حذر ووضع فنجان القهوة التي كان يرتشف منها، ثم طلب منه أن يقترب وهو يشير إليه بيده ثم وضع يده اليسرى على كتف تمبش قائلًا:

- شوف يا ولدي..

سرد الأستاذ تاريخ الدولة منذ دخول المستعمر وحتى الاستقلال وكيف جاء حزب الإصلاح في السلطة ولماذا ينادي بتلك الشعارات الجوفاء؟..

قاطعه تمبش مندهشًا:

- لكن يا أستاذ..الجهاد دا نكاتل بيهو أخوانا؟.. يعني هسة أنا أمشي أشيل بندقية وأكاتل أصحابي.. ناس عوض شول ودينق منوت وأويل وطارق جبونا وناس كالو.. لا لا لا ما ممكن..

ثم وقف منتصبًا مواصلًا حديثه:

- الكلام دا ما ممكن..

وأمسك الأستاذ تاج السر بيده طالبًا منه أن يجلس:

- اقعد.. اقعد نكمل ليك.

جلس تمبش وما زال في حيرته ينصت جيدًا لما يقوله أستاذه الذي واصل في حديثه بصوت منخفض:

- الموضوع زي ما قلت ليك أنو لازم كلنا نبقى مسلمين زيك كدا.. يعني أنا هسة المسيحي دا بيعتبروني كافر ولازم يكتلوني.. مش كدا وبس.. الموضوع أخطر من كدا.. الموضوع أنو نبقى عرب.. مع أننا زنوج حبة حمار ما فينا.. وأنت بشعرك القرقدي دا ولسانك المعوج دا ما تقول لي فصيح.. أنت برضك ما بتنفع معاهم إلا تكون تابع وتنفذ حاجاتم.

صاح تمبش يتساءل:

- كيف يعني؟.. وديل ناس منو ذاتو؟.. لكن الناس ما مختلفة.. وفي أجناس وقبائل كتيرة في البلد دي.. والناس عندها ألوان وأشكال وطباع واختلاف ياخي..

قاطعه أستاذه وهو يعتدل في جلسته:

- لا يا ولدي تكون عربي رغم سواد سحنتك.. ولون بشرتك.. دي الحاجة الجايبة المشكلة مخلياهم يكتلونا ويعذبونا بالطريقة دي.

استدرك تمبش أخيرًا ما كان تقوله أمه الحاجة نفيسة وتحكي لهم كلما اجتمعوا على مائدة طعام. فتذكر تلك الحكايات وقالها لأستاذه:

– من ما ولدونا يا أستاذ.. أمي بتحكي لينا أنو في حرب في البلد.. وكل مرة بسألا ليه الحرب دي ما تكون هنا؟ ليه بس الناس هناك هي البتموت؟.. ديلك في دولة تانية ولا شنو؟.. وبعدين شنو العنصرية البغيضة دي.. مش كلنا سودانيين.. ولا كيف يا أستاذ؟..

وردّ الأستاذ وقد أعجبه تفكير تلميذه تمبش:

– أيي كلامك صاح.. بس في ناس هنا فاكرينا عبيد ما بنستاهل نعيش حتى.. ما بنستاهل غيرالموت والخراب والدمار.. ونفضل عمرنا مشردين ومقطعين ونازحين.. مش كدا وبس.. نشتغل ليهم خداديم نخدمهم ونحرسهم وهم يحكمونا لحدي ما تقوم القيامة.

ثم صمت الأستاذ برهة وأكمل حديثه:

– لكن أصلو في يوم حيجي والأمور حتتغير.. وكل مسلوب حيرجع.

قال تمبش ومشاعر الحزن والأسى تعتريه لما سمعه:

– لكن لمتين يا أستاذ؟

ردّ الأستاذ بعد أن قام من مكانه وحمل قشة من الأرض لينظف بها أذنه:

– الإجابة عندكم يا تمبش.. لما تقروو تتخرجوو تتحرروا من التعبية العمياء للناس ديل.. وكل زول يعرف يقول الحقيقة وما يخاف.. تقروو تتعلمو ونطرد الخوازيق ديل أي واحد يرجع بلده.

قاطعه تمبش متسائلًا:

- بلدم وين يا أستاذ؟

- أنت قريت وعارف التاريخ.. ديل أصلًا جايين من بلاد بعيدة وكانو كايسين للأكل والموية.. وأجدادنا زوجوهم بناتنا وأخواتنا وعماتنا وفي النهاية اتسلطوعلينا..إحنا كنا ملوك ولينا صولاتنا وجولاتنا لكن الزمن غدار يا ولدي.. في لحظة بس أصبحنا صفر اليدين، كل شيء اتدمر صار خراب ونهارنا صبح ضباب.. بس لسة في أمل. وكمان ما كل الناس ديل كعبين في منهم متحررين وبرفضوا الظلم.. والزي ديل لقدام تكونوا معاهم، تحالفات وصداقات وتقيفوا سوا ضد أي زول ظالم حتى لو كان مننا.. وأملي يا تمبش في الشباب الزيك يا ولدي.. أنا دايرك أنت وقدورة وفيصل وخالد وباقي الشلة تبقوا عشرة على بعض وما تقطعو صداقاتكم دي لأي سبب من الأسباب.. والحياة ما ضمان احتمال ما نتلاقى كتير.. زي ما أنت عارف كل مرة بقبضونا معتقلات وسجون وتحقيقات وتحريات..

رغم إن تمبش لم يبلغ العشرين من عمره بعد، إلا أنه كان مثقفًا وواعيًا بما يدور من حوله من أحداث في الساحة وبفضل تقربه من أستاذه تاج السر تعرّف على الكثير من الأمور التي كانت غامضة وكشف له الأستاذ المستور وعرف كيف تدور عجلة الأمور.

واصل حواره المطول مع أستاذه وهو يقول:

- عشان كدا يا أستاذ كل مرة أنت بتختفي من المدرسة وبقولوا لينا أستاذ الإنجليزي مسافر.. وجاييكم ونقعد بدون ما يدونا حصة انجليزي إلا مرات يجي الأستاذ التاني داك الما عارف «إز من واظ».

نظر إليه أستاذه ضاحكًا:

- خوفي يا تمبش أسافر المرة الجاية وما ارجع ليكم.. أبقوعشرة.

صمت الأستاذ بعد أن حنى رأسه ثم قام من مكانه وتقدم نحو دولابه وأخرج أوراقًا وأعطاها لتمبش قائلًا له:

- احتفظ بالأوراق دي.. وكل مرة حاول اقراها وادي أصحابك يقروا معاك.. أنا كاتب فيها بعض الأفكار الممكن تساعدكم.. عشان لو ما رجعت تاني تعرفوا تسو شنو.. بس لازم تحافظوا عليها في سرية تامة عشان لو لقوها عندكم طيارتكم بتقوم.

قال تمبش وهو يستلم الأوراق:

- أكيد حترجع يا أستاذ لو ما رجعت إحنا بنرجعك.. أصلو ما تشيل هم يا أستاذ أبقى واثق أنو باكر ضواي وأجمل زي ما علمتنا.. الأوراق دي مسئوليتي أنا.. ما تشيل هم ما تخاف علينا.

خلع الأستاذ قبعته ووضعها على الطاولة التي أمامه ثم قال:

- أنا ما خايف عليك أنت وباقي الشباب.. خوفي من الناس التُجم المخمومين زي البصل الما بفكروا في أي حاجة.. ماشين بس ورا الناس كأنهم ما اتعلموا.. خوفي ديل يجو يخونوكم.

قاطعه تمبش:

- يخونونا كيف؟.. قصدك شنو يا أستاذ؟.. يسلمونا للأمن يعني؟.. زي ما عمل معاك أبو ناس أحمد الفي اللجنة الشعبية؟.

استغرب أستاذ تاج السر.. كيف عرف تمبش هذه المعلومة. لكنه تيقن أن وعي تمبش السياسي بدأ يتشكل وأنه حتمًا سوف يكون أمله في المستقبل فقال له:

- أصلو الدنيا ما معروفة يا ولدي.. ياما الناس بتخون عشان مصالحا الخاصة كلو واحد بفكر في نفسه.. كيف يركب عربية ويقش الناس بالتراب وكيف يعمل ضحر ويذل الناس.. ما بفكر في أبدًا أهلو البكتلوهم كل يوم.. بتذكر مرة يا ولدي كنا مجموعة من الشباب زمن التجنيد الإجباري اتفقنا إحنا أكتر من سبعتاشر واحد قلنا البوليس لو جو الحلة نرجمم رجم ما نخلي واحد مننا يقبضو مهما كانت الظروف.. لكن للأسف في واحد خانا ووصل الكلام دا بالنص لناس البوليس في بسط الأمن الشامل.. وجوا داهمونا بيت ناس نونو

وقبضونا كلنا واتدقينا دق.. لهسة عندي علامات في ضحري من أثر البسطونة.. لفقو فينا تهم لكن الحمد لله.. اتدخل عمك الترزي ريسو لانو كان بعرف رئيس القسم ولحقنا قبال ما يحولونا للقسم الكبير.. وياهو حال الدنيا يا ولدي.. لكن الخاين الله يخونو.. وصيتي ليك كمان يا تمبش ما إني تقلت عليك وكترت عليك الكلام.. عندي شوية قريشات مع المعلمين صرفتي الجاية من الصندوق تقوم تشيل القروش من أستاذ أبو عنجة تدي منها آدم بتاع الطاحونة سبعين جنيه وريسو بتاع الترزي في حلة فوق تلاتين جنيه، وما تنسى كمان محمدو بتاع الدكان الجمبنا دا تديهو مية جنيه وباقي القروش تديها لأم العيال تتصرف بيها، أصلو أنا خلاص ما ضامن إني هاعيش كتير في الدنيا دي. بالذات بعد الاعتقالات الكتيرة دي.

قاطعه تمبش والحزن والأسى يمزقان قلبه لِما قاله أستاذه وحديثه عن رحيله عن العالم:

- لا يا أستاذ ما تقول كدا.. تعيش أنت ويدوم خيرك.. لسة بدري عليك إن شاء الله تعيش ونتعلم منك كتير..

استمر حوار الأستاذ مع تلميذه إلى وقت متأخر من الليل واستأذن تمبش أستاذه ليذهب ولكنه وعده بالعودة مجددًا لإكمال حوارهما ومعه بقية أصدقاءه ليعرفوا حقيقة الأمور من أستاذهم.

خرج تمبش من منزل أستاذه تاج السر وهو مملوء بالحزن والحسرة لما سمعه، لكن الحماسة والشجاعة على خوض الصعاب للتغيير طغتا على حزنه وحسرته.

ركب تمبش دراجته (الكركعوبة) والتي يسميها الناس (الكركوبة) التي عادة ما (يردف) بها زملاءه رغم أنهم كانوا يسخرون منها ويطلبون منه أن يكتب عليها (عجلة) حتى يعرفها الناس لأنها أصبحت خردة بالية يجب أن يرميها في مكب النفايات. لكنه لم يكن يأبه لدعابات زملائه وظل يقود دراجته طول الوقت يشق بها الديار والفيافي البعيدة يقضي بها مشاويره المهمة ويستغلها في دراسته.

عندما خرج تمبش من منزل الأستاذ تاج السر قاد دراجته بسرعة رهيبة لم تكن معهودة عنده وكاد أن يتسبب في حادث مروري في الطريق المسفلت أمام مدرسة الكفاح الثانوية بنات إذ خرجت شاحنة كبيرة كادت أن تؤدي بحياة تمبش ولولا عناية القدير لأصبح في خبر كان.

بعد دقائق معدودة وصل تمبش إلى الحي ووجد عدد من الشباب يجلسون في دائرة وسط ميدان الكرة يقصون حكاياتهم ويتسامرون. وكان من بينهم ياسر الميكانيكي الذي يعمل في المنطقة الصناعية والشعلة الساعاتي الذي يملك مكانًا لتصليح الساعات الذي افتتحه من مدخرات عمله في بيع (الغربلة) وطارق المكوجي وجالونا النقلتي وجدو الخرخار الذي كان يكثر من مغالطاته في كرة القدم عندما يلعبون مع بعضهم. و

شيخو الفنان صاحب القدم اليسرى الموهوب في كرة القدم الذي كان يحلم أن يلعب في احدى أندية الدرجة الأولى لكن حلمه تبخّر بعد أن كسر أحد المدافعين قدمه اليسرى لينهي أحلامه.

اندهش الجميع وقطعوا حديثهم عن تمرين (دافوري الحلة) وكيف كان علاء الدين يتلاعب بجدو الخرخار في منطقة الجزاء وعن الجيلي (المدفعجي) الصلب وتسديداته القوية التي ضربت وجه الكيلاني الحارس الثقيل وكيف سجل أورفينو هدفه الوحيد في موسم الدافوري وأصبح حديثًا لأصحابه، خاصةً الشعلة الذي كان يسخر من المهاجم أورفينو الذي لا يسجل الأهداف إلا بالصدفة وأن الهدف الوحيد الذي سجله جاء بالصدفة وكما أنه سجله بعد أن كسر مصيدة التسلل وتغيرت الكرة في قدم المدافع الصلب حمادة رستم سكنت الشباك معلنة عن أولى أهدافه في مسيرته الكروية.

كانوا يضحكون وفي قمة سعادتهم. جاء تمبش بدراجته وقبض بيده على الفرامل وأثار عليهم الغبار وألقى تحية مقتضبة ولم يتوقف كثيرًا كعادته وذهب متجهًا نحو منزلهم القريب من الميدان قائلًا لهم:

- يلا يا شباب نشوفكم بكرة.

فناداه الشعلة:

- يا تمبش.. يا تمبش.. أدوك شاكوش ولا شنو بتفتري علينا كدا؟

أما جدو الخرخار لم يفوت هذه الفرصة ليسخر منه أيضًا:

- يا تمبش عجلتك دي لو عجباك خليها تفضل ليك.. وبعدين اكتب عليها عجلة.. عشان نعرف إنها عجلة.

ضحك المجتمعون في الميدان ويمضي تمبش في طريقه غيرمكترث لأمرهم و دخل المنزل ضاربًا بابه بدراجته ثم رماها أمام غرفته.

بعد أن تعبت ابنه عمه في تنظيف البيت. أتى تمبش بدراجته المتسخة بالطين ورمى بها في ساحة الدار.

صرخت سرور في وجهه:

- يا تمبش .. ارمي عجلتك دي برة هناك.. أنت ما شايف البيت نضيف كيف؟.. وأنا من قبيل تعبانة بنضف فيهو.. شفت الجمعة الجاية بودي عجلتك دي لناس الخرد.. عليك الله دي عجلة هسة مع الناس؟..

لم يرد تمبش بكلمة بل ظل صامتًا إلى أن دخل غرفته وغير ثيابه ورفع مرتبة السرير ووضع الأوراق التي أعطاها له أستاذه تاج السر تحتها وخرج مرة أخرى وألقى التحية على أفراد الأسرة. فسألته أمه نفيسة:

- مالك الليلة يا ولدي عامل كدة؟

ورد قائلًا:

- كيف يا أمي؟

قالت الأم:

- شكلك ما عاجبني.. في شنو كدي تعال جمبي بيجاي صنقر هني.

جلس تمبش بجوارها على (العنقريب) واحتضنته وقبلته على رأسه كما كانت تفعل كلما أرادت أن تتحدث إليه.

- مالك يا ولدي؟.. كدي احكي لي في شنو شكلك تعبان وزهجان وقرفان منو الزعلك.. أصحابك مالم؟

مع هذه الأسئلة الكثيرة لم يرد تمبش سوى بكلمات قصيرة:

- مافي حاجة يا أمي.. تعب وإرهاق بس ما أكتر..

- حاخش أخد لي حمام وإن شاء الله أصحصح.

دخل تمبش الحمام وأمضى فيه أكثر من نصف الساعة ولاحقته أمه بالكلام والحديث:

- أجي يا ولدي داير تغير جلدك زي بنات اليومين ديل ما عايزات اللون الأسود السمح دا؟

- امرق خلاص الأكل ختو هو ليك من قبيل.. لمن الملاح برد ذاتو.. وبعدين كملت الموية.. مويتنا الليلة ذاتا شوية.. الصهريج واقف قالوا

عطلان.. والمضخات بايظة وأنت قاعد تخسر فيها.. التقول النيل ماري بعندنا.. ولا بتمشي تنقلا لينا بعدين مع أخواتك ديل جنك تزوغ وتجري للكورة بتاعتك دي التقول بتعلب في المريخ.

سمع تمبش كلمة المريخ وكاد أن يخرج من الحمام عاريًا وهو يصرخ:

- يا أمي مريخ شنو.. إحنا الهلالاب والحمد لله.. إحنا ناس جكسا قاقارين.. إحنا ناس البطولات..

وردت أمه ضاحكة:

- يا هلال يا خيابة كأس ما جبيتوه من برة غير البوبار في السودان.. امرق من الحمام بلاش معاك تتكلم وأنت بتستحما.. امرق تعال رمرم.. عشان تمشي لناس عمك الأفندي شوف البابور الليلة مالو ما اشتغل والواطة حتضلم.

كان الحمام مصنوعًا من (شولات الخيش) والحصير والقنا ويستخدم (الطشتو الجردل) كأدوات للاستحمام وقطعة صغيرة من (شوال) البلاستيك لتنظيف الجسم بالصابون.

كان العشاء عبارة عن (كسرة رحيفة وملاح لوبا) وصحن صغير من أكلة مصنوعة من أوراق التبلدي مخلوطة (بالدكوة) تُسمى باللغة المحلية (إيقاذنا)

تذكر تمبش كل هذه الذكريات وهو مستلقي على سريره في منزلهم.

***

انتظر طارق أن يُذاع اسم تمبش في التلفزيون الرسمي أو الإذاعة الرسمية للبلاد مع المتفوقين وخاصةً أنه أحرز المرتبة الأولى على مستوى محافظتهم حسب الأخبار التي وردت إليهم. انتظر طويلًا مع أسرته ولكن خاب ظنهم ولم يُذاع اسم تمبش ضمن القائمة وأصيبوا بخيبة أملٍ إلا أن خيبات الأمل لم تطغي على لحظات الفرح العامرة بالنجاح الكبير الذي حققه تمبش في دراسته بعد أن واجه مصاعبها بثبات الطير في ثورة العاصفة.

لقد كان نجاحه محصلة اجتهادات تراكمت يومًا بعد يوم. كان يعشق النجاح لذلك سعى إليه دائمًا واستطاع أن يحققه بفضل اجتهاداته ومثابراته المتواصلة رغم شح الإمكانيات لدى أسرته.

عندما أُذعيت النتيجة كان تمبش في الموقع الجديد للعمل في منطقة المهندسين يبنون بناية جديدة لمستثمر أجنبي اشتراه لإنشاء شركة لإستيراد وتصدير الذهب.

كان تمبش مشغولًا برفع وإنزال الطوب وخلط الأسمنت بالرمل والخرصانة، لم يكن يعرف أنّ النتيجة قد أُعلنت. وقد ظل يعمل منذ الصباح الباكر حتى منتصف النهار إلى أن أتى صديقه قدوره الذي تفاجأ به تمبش وهو يقف أمامه فرحًا والابتسامة تعلو وجهه ولا يعرف ما الذي أتى به في ذلك النهار الساخن، قال تمبش مخاطباً إياه وهو يحمل جركانة (المونة) في يده:

- يا زول الجابك شنو هنا.. وعرفت كيف الموقع الجديد دا؟..

ردّ قدوره مبتسمًا:

- يا زول أبشر.. أبشر يا تمبش.. جايب ليك خبر بمليون جنيه.. رفعت رأسنا يا أخوي..

قاطعه تمبش متلهفًا لمعرفة الخبر:

- يا زول في شنو؟ شوقتنا معاك.. قول وريحنا.. ناس شيماء جو راجعين ولا شنو؟

وأردف تمبش بعد أن وضع جركانة المونة التي كان يحملها على الأرض ليستمع لصديقه:

- النتيجة طلعت؟ أنا نجحت؟.. احلف يا قدورة:

والله العظيم تلاتة أنت نجحت. و حات أمي نجحت وأنت كمان جيت أول المدرسة بس لكن!

قاطعه تمبش وهو ينظر في عينيه ليتأكد من كلامه:

- لكن شنو: رسبت في مادة؟.. ولا شنو؟.. قول ياخي قطعت مصاريني.. الله يقطع يومك..

- لكن ما ذاعوك في الإذاعة..

صمت تمبش قليلًا ثم قال في حسرة:

- ما مهم يا أخوي.. المهم أني نجحت.. وحتى لو جيت أول السودان ما حيجبوني في التلفزيون إلا لو كنت من أولاد المصارين البيض.. أصلو دا حالنا في البلد دي..

بينما كان الصديقان يتحاوران كان المعلم جلال يقف على (السقالة) ممسكًا (بالمسطرينة) منتظرًا تمبش بالمونة وحين طال انتظاره ناداه:

- يا تمبش.. المونة.. يا طُلبة أخو الحمار.. يلا حركنا خلينا نتخارج.. جيب المونة.

عندما سمع تمبش معلمه ينادي عليه طالبًا المونة.

قال مخاطبًا نفسه في فرحٍ:

- مونة ولا شيماء.. أنا نجحت يا معلم..

كاد تمبش أن يطير من الفرح وهو الذي انتظر هذا النجاح طويلًا.. فأسرع إلى جلال ليخبره بنجاحه.

يا معلم يا معلم:

- مالك يا تمبش؟.. ما تجيب المونة دي.. في شنو مالك مصدعني معاك..

- أنا نجحت.

بارك له معلمه جلال النجاح وطلب منه أن يستمر على هذه الروح التي عرفها به. لأن أحلام المجد والنجاح تظل أحلامًا جميلة في نفوس أصحابها وما تتحول حقائق حية إلا إذا نفخ فيها العاملون من روحهم وصلوها.

ثم قال مخاطبًا تمبش:

- امشي يا أدفن باقي المونة وغير ملابسك.. امشي البيت نكمل باقي الشغل المرة الجاية.. وبكرة اقعد في البيت بجيب معاي أي طُلبة من العواطلية الفي الحِلة.. وأنت امشي احتفل.. وتعال يوم الاتنين الجاي..

ثم أكمل وهو يناوله مبلغًا من المال:

- شيل دي معاك اشتري بيها حلاوة.. ودي هديتي ليك يا بطل.

أعطاه بعض النقود تحفيزًا لعزمه وكدَّه فإنه كان يمضي في طريق الإجتهاد بلا توقف وبصبر، وقد ثابر فاستطاع أن يحقق النجاح. فقد كان صبره مفتاح النجاحِ رغم ما مر به من صعاب وأوقات قاسِية الهموم، نال به نجاحًا بعد أن سهر الليلَ وجاء وراءه صباحٌ جميلٌ يحمل له بشريات النجاح والتفوق.

كان تمبش مثالًا للطالب المجتهد الذي لا يضيع أوقات الفراغ. كد واجتهد ووجد. انتصر على لحظات الهزيمة التي حاولت أن تنال من عزيمته وإصراره على النجاح لكنه رفض أن يستسلم وواصل رحلته

مثابرًا ومكافحًا، إلى أن كُتب له النجاح. ليحقق حلم والده بتفوق ليلتحق بالجامعة حتى لا يتجرع من كأس الإهانة والسخرية التي كان يتعرض لها والده أثناء عمله في الطرقات وهو ينظف الشوارع ويجمع القمامة.

غيّر تمبش ثيابه المتسخة وودع معلمه جلال وذهب مع صديقه قدورة إلى المنزل ليحتفل مع أمه وسكان الحي الذين من المؤكد أنهم قد اجتمعوا للاحتفال بالنجاح الباهر الذي حققه ابنهم وفارس أحلامهم وحامل لواء وشعلة العلم تمبش.

ودّع تمبش المعلم ملقيًا عليه تحيات الوداع قائلًا:

- يلا يا معلم إحنا مشينا نتلاقى:

وردّ جلال وهو يستعد للذهاب أيضًا:

- خلو بالكم من نفسكم.

وردا:

- وأنت كمان يا معلم.

***

انطلق الصديقان نحو الطريق الرئيس وركبا الموصلات إلى حيث يقطنون. وكانا يتحدثان عن النجاح. ومرت لحظة حزن على تمبش حينما تذكر والده الذي رحل عن الدنيا تاركًا حزنًا عميقًا فيه. وبدأ يحكي لصديقه قدورة:

- شفت يا قدورة كنت بتمنى أبوي يكون قاعد ويحضر نجاحي ويفرح معاي.. لكن الأقدار دايمًا بتسرق مننا اللحظات الحلوة كأننا مولودين للشقى والحزن.

وضع قدورة يده على صديقه ليواسيه:

- شوف يا تمبش دي سُنة الحياة.. وأبوك ما مات طول ما أنت بتحقق نجاحات وشايل اسمه.. اتمسك بحلمك وما تتنازل عنه عشان تفرحو أكتر.

والتفت إليه تمبش قائلًا:

- قلت كدا يا أخوي.

فابتسم قدورة:

- طبعاً يا أخوي والحياة دي كدا.. وكلنا حنمشي منها.. ودا دربنا.. لكن بتكون الحياة أجمل لمن نحقق أحلام الناس البتحبنا.. وأنت عارف قدر

شنو أبوك الله يرحمو كان بحبك كيف.. وما برضى ليك الحاجة الكعبة.. وما تنسى أمك المسكينة كل يوم بتدعي ليك عشان تنجح وتكون زول ناجح ويفرحك بيك كل العالم.

تعانق الصديقان وهما يسيران في الطريق فرحين رغم اللحظات الحزينة والعابرة التي مرت بهما.

في طريقهما رأى تمبش بقالة وتذكر بأن يشتري الحلوى لتقديمها للزائرين الذين سيأتون للتهنئة. طلب من صديقه أن يتوقفا ليشتريا الحلوى وقال قدورة:

– يا خي اراح نشتري الحلاوة من قدام.. في أي دكان في حلتنا.. لشنو مشتريها من هنا؟

رد تمبش ساخرًا:

– ياخي حلاوة الحلة ما زي حلاوة حي المهندسين هنا.. دي حاجات بتجي من برة.. وبعدين أصلو الغبش ديل ما نفرحهم مرة في الحياة دي؟.. ودي حلاوة جميلة تأكل ما تدي الجنبك. وبعدين لازم نشتري حاجة قدر نجاحنا ولا شنو يا قدورة؟

وردّ قدورة وهما يقفان أمام بقالة الإحسان:

– أيي والله كلامك صاح.. نضوِق ناس الحلة حاجة حلوة.

قدم تمبش النقود لصاحب البقالة ليشتري الحلوى طالبًا منه عدد خمسة أكياس مشكلة من الحلوى وعلبتان من عصير (التانج) وثلاثة (جركانات) من الفراولة وثلاثة كيلو من السكر.

قدم له صاحب البقالة ما طلبه ووضع الأشياء في أكياسٍ كبيرة وأعاد له المتبقي من النقود وانصرفا نحو الطريق الرئيس لإكمال رحلتهما نحو الحي وهما يتناولان من الحلوى.

توقّف الصديقان وهما ينتظران الباصات إلا أنها كانت تأتي وهي تحمل أعداد هائلة من البشر ما يفوق عدد مقاعد الباص ولا تستطيع أن تجد مكانًا لتضع فيه قدمك. والبعض الآخر يمر بسرعة مما جعل تمبش يقرر أن يستأجر سيارة أجرة حتى لا ينتظرا كثيرًا.

أشار قدورة إلى إحدى سيارات التاكسي فتوقفت وكان سائقها شيخًا كبيرًا اشتعل رأسه بالشيب وسقطت أسنانه وانحنى ظهره. لكنه كان يقود سيارته باحترافيةٍ عالية. رغم أنها كانت بالية، لكنها تعمل بشكل جيد فقد كتب على زجاجها الخلفي (حصاد الغربة).

مدّ قدورة رأسه بالشباك الأمامي ليحادث السائق:

- أها يا حاج ماشين الحلة الجديدة غرب الحارات..

وردّ قائلًا:

- جدًا.. اركبواوديكم طوالي..

سأله قدروة عن قيمة الأجرة:

- تودينا بي كم يا أبوي.

- البتدفعو بس يا أولادي أي حاجة بشيلا منكم.. أصلو ما بنختلف.

صعد الصديقان وهما يحملان أكياس الحلوى والعصائر، جلس قدورة في المقعد الخلفي في التاكسي واضعًا الأكياس بجانبه. أما تمبش ففضل أن يجلس بالقرب من السائق في المقعد الأمامي ثم أغلق الباب وقال للسائق:

- يلا نتوكل.

أدار السائق المفتاح فلم تتحرك السيارة وحاول مرة أخرى ولم يجدِ ذلك نفعًا. ثم طلب منهما أن ينزلا ليساعداه في دفع السيارة إلى الأمام لإدارتها. فنزلا سريعًا كان تمبش يحدث نفسه وهو يدفع السيارة:

- هسة دا وقت دفر دا؟.. الناس في شنو والحسانية في شنو.. عمك شابكنا دفر.. دا الانا كنت خايف منو ذاتو.. من ما شفت العربية دي ما اطمنيت لكن شكلو عمك زول على نياتو.. نسوي شنو أصلو المكتوب ليك لازم يحصل.

كان السائق يطلب منهما دفعها بقوة:

- يلا يا شباب شوية تاني قربت تقوم..

تعب الصديقان وأحسا بالإرهاق خاصةً تمبش الذي جاء من العمل الذي يبذل فيه طاقة، ومع دفعه للسيارة في المرة الأخيرة استطاعت أن تعمل من جديد وانطلق الدخان حتى استنشق منها تمبش جعله يضع يده على صدره.

ثم صعدا مجددًا إلى السيارة وانطلقوا نحو منزلهم وشغل السائق مسجل الصوت ووضع «كاسيت» للفنان مصطفى سيد أحمد وهو يصدح بأغنيته السمحة قالوا مرحلة بعدك الفريق أصبح خلا..

وعندما بدأت موسيقى الأغنية تعمل قال الصديقان:

- يا سلام عليك يا حاج..

وقال تمبش:

- الفنان دا بحبو جدًا.. عندي الأشرطة بتاعتو كلها

وحافظا اغنياتو زي قصائد الحفظ صم.. وعلى ظهر قلب كمان.. وبعدين أغانيهو فيها معاني عميقة تلهب مشاعر الزول وبتتناول قضايانا وهمومنا.. الله يرحمك يا أستاذنا الكبير مصطفى سيد أحمد..

وفي الطريق كادت السيارة أن تتوقف إلا أنّ براعة السائق كانت حاضرة، استطاع أن يتحكم بها. مما جعل تمبش يسأله:

- يا حاج أنت اشتريت العربية دي متين باين عليها قديمة شديد.

قاطعه السائق وهو يمسك (بالدريسكون) ويتمايل مع المطبات التي في الطريق:

- قديمة والله يا ولدي.. اشتريتا من ما جيت من الغربة.. ودي الفضلت لي بس.. بعد غربة سنين.. لكن نقول الحمد لله.. قدرت أقري بيها عيالي التلاتة وخلصو الجامعات لكن للأسف كلهم عواطلية ما لاقين شغل وبقو شغالين رزق اليوم.

أُحبط تمبش بما قاله سائق السيارة لكنه تمنى أن يوقفهم الله ويجدوا أعمالًا تناسبهم فقال:

- ما تخاف يا حاج إن شاء الله أولادك يلاقوا الشغل الكويس ويريحوك حبة.

ردّ السائق:

- آمين يا رب. يسمع منك رب العالمين. أصلي ما عندي حاجة في الدنيا دي غير أشوفهم فرحانين وأموت وأنا مطمئن عليهم.

قال تمبش:

- ما تخاف يا حاج خلي الأمور لله.. أنا من ما أبوي اتوفى..

قال السائق:

- الله يرحمو.

واصل تمبش حديثه:

- وأنا الوحيد بشغل عشان أقدر أقري نفسي وأصرف على أمي والليلة كمان النتيجة ظهرت وأنا نجحت وبحاول أوفر عشان أقدر أقرا الجامعة.

قاطعه السائق:

- ربنا يقدرك يا ولدي.. ودي المسئولية كدا.. شد حيلك وإن شاء الله تحقق أحلامك.. وابقى عشرة على نفسك..

ثم قال السائق:

- وأنا كمان زوجتي اتوفت بعد رجعتي من الغربة بخمسة سنوات قضيتا في الخليج.. ومن الزمن داك ولهسة أنا ما اتزوجت بقيت أبوهم وأمهم.. وقدرت أخليهم يكملو الجامعات وهسة ممكن أفكر أعرس بعد دا.

وقال تمبش ضاحكًا:

- تعرس وين تاني بعد العمر دا كلو.

وقال السائق مبتسمًا وهو يضغط على الفرامل ليتوقف عند إشارة المرور:

- مالويا ولدي.. داير زول يعمل لي الشوربا والمدايد ويعوس لي الكسرة.. زي ما كانت بتعمل أم العيال وبتهتم بي ما أنو العيال ما مقصرين..

صمت تمبش برهة يفكر فيما يقوله السائق ثم ردّ قائلًا:

- الله يقدرك أبوي.

ثم صمت طويلًا وترك السائق يقود سيارته فيما خلد قدورة في نوم عميق على «الكنبة» بين أكياس الحلوى والعصائر التي اشتروها.

وصل الصديقان الحي بعد مشقة وجهد شديدين. و بعد أن توقفت السيارة أحس قدورة بتوقفها واستيقظ من نومه وسمع تمبش يناديه قائلًا:

- قوم يا سجم الرماد وصلنا.. نزل الحاجات دي.. خليني أحاسب عمك..

بينما كانا يتحدثان جاءت والدة تمبش وهي تطلق زغاريد الفرح بعد أن أخبرها ياسين بالخبر المفرح. وهي تزغرد:

أيووو يووو يووي

انطلق سائق التاكسي بسيارته بعد أن أعطاه تمبش النقود واصفًا له المحطة التي يقف فيها إذا احتاج إلى شيء.

***

تقدمت والدة تمبش نحوه محاولة أن ترفعه وتجمهر الناس مهنئين ابنها البار تمبش ودخلوا إلى المنزل ليكملوا فرحتهم بالنجاح.

كانت والدة تمبش أكثر الناس فرحًا بنجاحه كيف لا وقد عانت وثابرت في هذه الحياة حتى يتحقق حلم ابنها وحلم زوجها المرحوم.

كانت تحزن لحزن تمبش ويسعدها أصغر التفاصيل ويبكيها مرضه تدعو الله له حتى وإن أحزنها تظل ساهرة حتى ينام وتتعب حتى يرتاح.

أحب تمبش أمه كثيرًا لأنها الوحيدة التي تكترث لأمره وتشاركه حزنه في كل الظروف. ولأنها الوحيدة التي تفرح لفرحه وأكثر منه دائمًا. خاصةً بعد رحيل الوالد.

دخل الناس البيت وهم يهنئون تمبش بنجاحه وكان قدورة يحمل أكياس الحلوى والعصائر التي اشتروها من البقالة في حي المهندسين وخلفه موكب الشباب الذين يحملون تمبش ويغنون له أغنيات من الزمن الجميل ومع زغاريد النساء امتلأ البيت بالفرح.

وضع قدورة الأكياس في المطبخ ودخلت بعض الفتيات ليساعدن والدة تمبش في إعداد العصائر والمشروبات وتقديم الحلوى.

قمن سريعًا بفتح الأكياس وإعداد المشروبات من العصائر بعد أن أحضر قدورة الثلج من محل بيعه في آخر المحطة، وقدموها للضيوف واحتفل الجميع بالنجاح الباهر الذي حققه ابنهم تمبش. و بعد أن ذهب الجميع بقى قدورة مع صديقه يفترشان الأرض و يلتحفان السماء مستلقيان على «السجادة « يفكران في القادم من أمور كثيرة عالقة.

كانت والدة تمبش تخطط لإقامة حفل كبير على شرف نجاحه وذهبت إليه حيث كان يجلس مع صديقه قدورة وقالت وبعد أن جلست معهما:

– أها يا ولدي دايرة أعمل ليك حفلة كبيرة.. نفرح بيك ونبارك ليك النجاح.

نهض الصديقان وجلسا ليستمعا للحاجة نفيسة وقال تمبش وهو يضع يده على خده:

– لكن يا أمي نجيب القروش من وين؟.. وأنتي عارفة أنو كل القروش عملنا بيها الفراش بتاع أبوي.. وبحاول الأيام الجاية دي أشتغل عشان أوفر للجامعة واشتري شوية غيارات.

قال قدورة وهو يلتهم قطعات الحلوى منذ أن اشتروها وقد قضى عليها ولم يتبقى منها الكثير:

– شوف يا أخوي ما تشيل هم.. أنا معاي شوية قروش أن شاء الله نجيب لينا عتوت صغير نضبحو ونكرم ليك حتى لو ما جبنا فنان يغني.. نجيب فرقتك تجي تغني ونعمل ليها دعاية مجانية ذاتو.. نعزم ناس الحلة ويجو الأهل ونعمل غدا كدا والناس تفرح بيك يا بطل.. ولا شنو يا أمي؟

وقالت الحاجة نفيسة:

– كلامك زين يا ولدي .. عمرك ما قلت حاجة غلط ..دايمًا أنت بشارة خير الله يخليكم لبعض.

ثم نهضت من مكانها واتجهت إلى الغرفة وفتحت شنطة الحديد التي كانت تضع فيها نقودها تحت السرير التي كانت توفرها للظروف وأخذتها وعادت إليهما.

احتار الصديقان عندما قامت نفيسة من مكانها دون أن تكمل معهما فكرة إقامة الحفل.

عادت نفيسة إليهما وهي تحمل كيسًا من النقود ورمته على تمبش قائلة:

– ما تشيل هم يا ولدي أمك قاعدة دي قروش الصندوق الأخير.. لمن شلت الصرفة ختيتو ما شلت منو إلا في وفاة أبوك.. ودا الفضل وحيكفينا إن شاء الله.. بكرة إن الله حيانا تقومو دغش تمشو لناس عمك طارق تكلموهم الجمعة الجاية نعمل الغدا وأنا كمان حاطلع أعزم العوين في الحلة وعمك الترزي يكلم الرجال و انت يا تمبش تجيب فرقتك يجو يغنو وكدا نكون فرحنا بيك وربنا يسهل لقدام.. أصلك بتستاهل كتير يا ولدي.

قبل الصديقان ما قالته الوالدة ووعداها أن ينفذا ما قالته. ثم خرجا ليشتريا العشاء من محلات رينو(للبواسم) وباسطة من حلواني الأحبة (لزوم تحلية ودلع) في يوم النجاح. فإن العشاء في ذلك اليوم سيكون مختلفًا عن بقية الأيام كما اعتاد تمبش أن يتعشى مع أصدقائه في دكان خِضر في شارع الأربعين في حيهم.

كان تمبش يلتقي مع أصدقائه مساء كل يوم بعد عودتهم من أعمالهم المختلفة في المصانع والشركات وأعمال البناء كتمبش الذي كان يعمل (طُلبة) ليوفر ما يحتاجه للدراسة. فإن الناس في تلك القرية لا يعيرون التعليم أي اهتمام فقط يرسلون أبنائهم للمدارس حتى لا يروهم في الشوارع مشردين وجوعى وهكذا من أمور.

لذلك لا تجد من يتابع ابنه في المدرسة أو يسأله عن دروسه أو يشجعه للاستمرار في دراسته ليحقق ما يطمح له. أغلب الأبناء في الحي لم يستطيعوا الالتحاق بالجامعات لعدم توفر المبالغ المالية أو لعجز أولياء أمورهم من توفيرها خاصة أن الفرد الواحد منهم يعول أكثر من سبعة أبناء على أقل تقدير وتزداد عليه الأعباء في حال نزوح بعض الأقارب من مناطق الحرب أو إذا كان متزوجًا أكثر من امرأة لذلك ليس من اهتماماتهم أن يعلموا أبناءهم. فالمهم عندهم توفير الطعام بكثرة وإن لم يكن مغذيًا ولا يهم أيضًا عندهم أوقات تناول الطعام، فيمكن أن يتناولوه في أوقات متأخرة من الليل بعد عودة ربات الأسر إليها.

لم يفكر أحد في مستقبل أبنائه. فقط يفكرون في تزويجهم لتعمير الأرض بالنسل والنسب وتبقى أحلامهم محصورة بين الولادة وإنتاج الذرية الصالحة ليخلفوهم في الأرض دون أن يدخروا لهم شيئًا للمستقبل ليمضوا قدمًا في الحياة.

تعلّم تمبش وأصدقائه معنى التعاون والتآزر والتآخي فتجدهم كلما اتجمعوا يجمعون (الشيرنق) لإعداد (صحن الفتة) في دكان خِضر الذي كلما وقف سيسكو أمام اللافتة يقرأها خُضر ويضحك زملاؤهم ويقولون له ساخرين:

- ياخي خِضر فضحتنا.. الله لا جاب باقيك. والله نكلم ليك أستاذ العربي يشدوك أربعة كبار في المذاكرة.

ويرد عليهم سيسكو ضاحكًا:

- مالكم يا خولات.. هو العربي دا حقنا.. مالنا ومالو خِضر.. خُضر .. المهم اسم وخلاص.. ظبطوا الفتة خلينا نملا أمدرماناتنا ونتخارج.

***

أُقِيم حفلٌ كبيرٌ على شرف نجاح تمبش وحضر جميع الأهل والأصدقاء والأقارب. جاء طارق بأسرته وأستاذ تاج السر وبعض سكان الحي المقربون منه.

ذبح عجلًا مسمنًا وتناول الناس الطعام بفرحٍ وغنت فرقة الأمل التي يعزف معها تمبش وقدموا أغنيات تفاعل معها الجمهور بعد أن تناولوا وجبة الغداء (المدنكل) استمر الحفل حتى منتصف الليل.

ظهرت نتائج قبول الطلاب بالجامعات بعد مرور شهر من حفل النجاح كان تمبش من ضمن الطلاب الذين تم قبولهم للالتحاق بالجامعات. ولحسن حظه تم قبوله في الكلية التي كان يحلم بالالتحاق بها وهي كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.

بدأ في الاستعداد للدراسة بشراء الدفاتر والأقـلام والحقائب والملابس والأحذية والساعات. وكان تمبش يضع رسوم الدراسة في الاعتبار، لذلك ظل يعمل لساعات متأخرة (أوفر تايم) حتى يستطيع أن يدخر مصروفاته الدراسية وتوفير كل ما يحتاجه لكي لا تنقطع به السبل. خاصةً في(السمستر) الأول من فصول الدراسة.

لقد كان إحساسًا مختلفًا وتمبش يخوض تجربة جديدة في حياته. فيها المفارقات والصعاب والأحاسيس المتباينة وكان يسيطر عليه في ذلك الوقت إحساسان، الأول فرحته بتحقيق أولى خطوات ما كان يحلم به وهذا إحساس ممتع على الرغم من صعوبة القادم، إلا أنه أعطاه أمل أنّ باستطاعته تحقيق الباقي والثاني هو افتقاده الشديد لوالده، حيث أن هذه الكلية وذلك المجال كان حلمًا مشترك بينه وبين أبيه.

إحساس مختلف لأنه الآن والآن فقط سيبتدئ أولى خطواته الجامعي، فقد آن الأوان ليحقق أحلامه وهو الذي تفوق في دراسته في الثانوية ويمضي بثبات في طريقه وبكل فخر بدأ عامه الجامعي الأول.

كانت بدايته بنسبة عالية في الثانوية أهلته لدخول كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. ومابين جناحي الأسرة تعالت بعض الأصوات بالالتحاق بكلية الآداب لدراسة اللغة الإنجليزية والكل أدلى برأيه وكانت اختياراتهم في الغالب محصورة في الآداب لدراسة اللغات لكنه اتخذ قراره لتحقيق حلمه وحلم والده.

وبخطواتٍ متسارعة وقلبٍ مليء بالخفقان بدأ يومه الأول في كليته وهو يرتدي ملابسه الجديدة التي اشتراها من السوق الكبير ليظهر بوجه حسن أمام زملائه الطلاب حتى لا يسخرون منه خصوصًا ميسوري الحال.

ظل تمبش يتحدى الحاضر ليرسم المستقبل الذي كان يحلم به مع أسرته. فقد كانت عتبة الباب بمثابة المستقبل الذي سيشكل ملامح حياته الجديدة.

اشترى تمبش ما يحتاجه من دفاتر ووضعها في حقيبته الجديدة التي كان يحملها على ظهره متأهبًا للدراسة ولحدوث أي أمر طارئ، خاصةً وأن تلك الجامعة كانت معروفة بالمظاهرات والعنف الذي تمارسه الشرطة والأجهزة الأمنية تجاه الطلاب في أركان النقاش. لكنه رغم ذلك كان مبتسمًا وهو في يومه الموعود. بدأ يتخيّل ويتساءل:

- ما شكل دكتور الجامعة؟!.. كيف يبدو؟!.. وبأي طريقة يتحدث؟!.. ورسم شكله في مخيلته هو ذو شعرٍ أبيض كثيف ويرتدي نظارات سميكة وملابس جديدة وربطة عنق كبيرة ومميزة وعطور باريسية، ويحمل كتب كثيرة وحقيبة كبيرة مليئة بالأوراق والكتب.

تسابقه أنفاسه كلّما اقترب من كليته. وأخيرًا بعد بحث طويل وجد كليته وبدأ يتوه في القاعات ويتحيّر. يرى وجوه جديدة، ابتسامات كثيرة. ذلك الشاب ينظر إلى جدوله المليء بالمحاضرات، وتلك الفتاة تسأل عن قاعاتها. وهناك مجموعة تغني وتتحدث بأعلى صوت. ويحاول تمبش ألا يظهر للطلاب بأنه من الطلاب الجدد الذين كانو يُطلَقون عليهم حينها (البرالمة) وحاوَل أن يتظاهر بأنه مخضرَم في هذه الكلية ومن

(السانير) كي لا يقع في مقالِب الطلاب القدامى. وأخيرًا وجد قاعته. ها هو المحاضر وليس مثلما تخيّله، لكنه كان يبدو عاديًا بثياب ليست بجديدة ويتحدث لغة بسيطة يفهمها الجميع. لكنه كان صارمًا وهو يقدّم نفسه إليهم. طالبًا منهم الالتزام بقوانين الكلية حتى لا يتعرض أحدهم للفصل كما فصل الكثير من الطلاب الذين يخرقون القوانين، ومشددًا على احترام الوقت.

خرج تمبش للاستراحة بعد المحاضرة الأولى وبدأ يشاهد الوجوه الكثيرة، والمباني الضخمة والشاهقة ليست كمدرسته الصغيرة. المقاعد مليئة بالطلاب منهم المنهمك بالدراسة، ومنهم المنهمك بنظراتٍ حائرة إلى تلك الفتاة التي كانت تجلس وحدها على المقعد.

في عتبة الباب سقطت ورقة فيها جدول محاضرات كلية الاقتصاد وانحنى تمبش ليرفعها لزميلته وأعطاها وشكرته قائلة:

- شكرًا ليك.. كلك ذوقك.

وردّ تمبش الذي بدأ واثقًا وهو يقف أمام الفتاة:

- تسلمي.

ونزل تمبش من السلم ولحقت به الفتاة وهي تقول:

- لو سمحت؟.. يا شاب.

والتفت تمبش ليرى مخاطبه وقالت الفتاة وهي تنظر إليه:

- أنت في الاقتصاد؟

- أيوا.. في حاجة؟!

- لا كنت عايزة أعرف المحاضرة التانية في ياتو قاعة؟!

رد تمبش:

- والله ما عارف لكن ممكن نفتش مع بعض.

تقدمت إليه الفتاة بعد أن جاءت صديقتها وهي تحتضن دفاترها وتسألها:

- على وين ماشين؟!

رد تمبش كأنما السؤال موجهًا إليه:

- ماشين نفتش القاعة بتاعت المحاضرة التانية، أنتي برضك في الاقتصاد؟

قالت الصديقة:

- أي أنا برضي في الاقتصاد لكن أراحكم نفطر في الكافتيريا.. وبالمرة نتعارف أكتر.. وبعد داك نمشي نفتش القاعة دا موضوع هين..

ذهبوا معًا في طريقهم إلى الكافتيريا لتناول الفطور وكان تمبش يتفرس في مباني الجامعة الشاهقة ويتلفت كسائق التاكسي ينظر هنا ويجد أركان النقاش، وهناك الكافتيريا وألعاب البلياردو ومكتبات التصوير والطلاب

المنتشرون تحت الأشجار الظليلة مع الطالبات، وأشياء كثيرة لفتت انتباه تمبش وهو في يومه الأول من أيام الدراسة.

وصل تمبش وزميلاته إلى الكافتيريا وجلسوا في زاوية صغيرة ووضعوا حقائبهم على الطاولة وسألهما تمبش:

- أها يا أخوانا تأكلو شنو؟!

وردت إحداهما:

- أي حاجة منك ممكن شاروما أو بيرقر..المهم حاجة تتأكل.

وردت الأخرى:

- أقعد أنت أنا حاجيب ليكم الأكل من حسابي.. وذهبت مسرعة إلى الكاشير لتطلب طعامًا لهم، تركت تمبش مع زميلته يتبادلان أطراف الحديث ثم عادت تحمل (الساندوتشات) وتناولوا وجبتهم وهم يتعارفون.

- أها يا جماعة أبتدي أعرفكم بنفسي.. أنا اسمي أيمن ود البلولة ومشهور بتمبش..

التفت إلى إحدى الفتيات التي كانت تجلس بيساره

- أنتي منو؟

قالت الأخرى:

- أنا آلاء ودي صحبتي اسمها سماح.

عندما أكملوا التعارف خرجوا للبحث عن القاعة استعدادًا للمحاضرة الثانية.

كان تمبش يجول بأنظاره ويفكر في الذهاب إلى ركن النقاش للاستماع للأحزاب السياسية التي حدثه عنها أستاذه تاج السر.

ظل الثلاثي تمبش وسماح وآلاء يبحثون عن القاعة الأخرى حتى يتمكنوا من حضور المحاضرة الثانية في ذلك اليوم، إلى أن التقوا في طريقهم في فناء الجامعة بصديق تمبش مبارك الذي لم يلتقيه منذ أن ذهبت أسرته للعيش في مكان آخر ولم يتسنى لهما أن يلتقيا.

تعانق الصديقان عناقًا حارًا عبّر عن شوقهما وسط دهشة الصديقتان آلاء وسماح. وقفوا قليلًا تحت إحدى الأشجار الظليلة بجانب إحدى الممرات الداخلية للجامعة. وبدأ الصديقان يتفقدان أحوال بعضهما وكان تمبش فرحًا باللقاء الذي لم يتوقع أن يحظى به وبرؤية صديقه مبارك مجددًا، ظهرت على وجهه علامات الفرح والسعادة والسرور وهو يقول:

- قلت لي كيف يا مبارك؟.. سنين وسنين ما لاقيتك. ياخي رحلتوا وين؟!..

وأجاب مبارك وهو يمسك بيد تمبش:

- والله تقول شنو.. رحلونا التعويضات.. وحلتنا ديك مقطوعة من العالم خالص.. لا موية لا كهرباء ولا حتى مواصلات، ساي عشان الواحد يقدر يطلع يجي عليكم.. ياخي اتلومنا معاكم شديد، وكيف أخبارك وأخبار الوالد والوالدة لعلهم طيبين وناس الحلة كلهم؟..

تمبش يقاطعه:

- الدوام لله أبوي اتوفى قبال كم شهر كدا.

قال الجميع:

- الدوام لله.

وقال مبارك:

- والله جايز.. عم البلولة كان رجل طيب.. ربنا يرحمو ويسكنو فسيح الجنات..

قال مبارك مندهشًا:

- إحنا ما عارفين الكلام دا خالص.. ما قلت ليك الحلة مقطوعة من العالم.. عشان كدا رحلت جيت قاعد الليلة في الداخلية قريب من الجامعة.. قبلوني قانون قلت أقعد قريب وارجع للأهل في الإجازة.. لكن دي فرصة كويسة نمشي معاك بعدين يا تمبش نسلم على الوالدة ونعزيها ونعدي على الناس في الحلة.

وردّ تمبش:

- جدًا طوالي حبابك ألف.. خلاص أراح أحضر معانا المحاضر لو ما عندك حاجة وبعدين نطلع نمشي سوا.. نسيت أعرفك على زميلاتي.

ثم أكمل وهو يشير إلى الفتيات:

- دي آلاء ودي سماح.

مدت آلاء يدها لتصافح مبارك وهي ترتدي عباءة سوداء وتقف بالقرب من صديقتها سماح. وكانت سماح ترتدي أسكرت أسود وبلوزة صفراء اللون. وصافحت مبارك وقالت:

- سعيدة بمعرفتي بيك.

ردّ مبارك:

- وأنا برضي اتشرفت بمعرفتك.. بتمنى نتواصل أكتر.

قال تمبش:

- يلا يا جماعة أرحكم نشوف القاعة دي وين.

انطلقوا باحثين عن القاعة وهم يسيرون في ثنائية كعادة طلاب الجامعات حين يلتقون بزميلاتهم. تمبش يتحدث مع آلاء ويسيران أمام مبارك وسماح اللذان كان يسيران ببطء ويتحدثان في أمور عديدة تتعلق بالدراسة والحياة.

لمح تمبش القاعة التي كانوا يبحثون عنها وقد كُتب عليها قاعة البروف الراحل محمد أحمد فأخبر زملائه:

- يا جماعة يهو نديك ليها القاعة تعالو بيجاي.. بعد لافتة كلية الهندسة.

ذهبوا ليلحقوا بزملائهم الذين سبقوهم في الوصول إليها. دخلوا القاعة ووجدوا الطلاب يجلسون في أماكن متفرقة، كل منفرد بنفسه لعدم معرفتهم ببعض.

اختار تمبش ورفاقه الجلوس في المقاعد الأمامية حتى يستمعوا جيدًا لما يقوله المحاضر وينأوا بأنفسهم من متاعب الطلاب مثيرو الشغب.

جلسوا في انتظار وصول المحاضر وهم يواصلون في حديثهم عن الجامعة.

بينما هم يتحدثون وصل المحاضر الدكتور عبدالعزيز أحمد الخبير في الاقتصاد العالمي والمشرف على جمعية الاقتصاد الحر.

دخل وهو يحدق في الطلاب ويتلفت دون أن ينطق بكلمة إلى أن تقدم إلى المنصة ووقف أمامهم ينتظر أن يصمتوا ليبدأ بالحديث. وبعد أن صمت الجميع ألقى التحية:

- السلام عليكم ورحمة الله.

وقف بعض الطلاب لتحية المحاضر:

- وعليكم السلام ورحمة الله وتعالى بركاته.

بدأ المحاضر بتقديم نفسه إليهم ثم أتاهم صوت بعض الناس في الخارج يهتفون «لا إله إلا الله» «الله أكبر» وهم يضربون الباب الرئيسي للقاعة بقوة.

تقدم إلى الباب لفتحه ومعرفة ما يدور في الخارج. وفجأة انفتح الباب واندفع نحوه عدد كبير من الشباب يحملون العصي والسيخ وأعواد الأشجار وبعضهم يحمل أسلحة صغيرة وطلب منه أحدهم أن يرفع يده ويخرج من القاعة سالمًا قائلًا له:

- إحنا ما قاصدنك أنت يا دكتور.. عايزين الخوارج الهنا ديل.

تفاجأ الطلاب بما يحدث فحاول البعض القفزعبرالنوافذ واشتبك البعض الآخر مع المجموعة المهاجمة لحماية أنفسهم.

بينما الطالبات يبكين، امتلأت القاعة ضجيجًا وصراخًا وعمّت الفوضى. وضُرب الطلاب وأصيب عدد كبير منهم بجروح خطيرة وسألت الدماء. ظلوا يضربونهم إلى أن خرجوا خارج القاعة و سيارات الأمن تمتلئ بالمعتقلين.

حاول تمبش وصديقه مبارك أن يحميا زميلاتهما إلا أنهما لم يفلحا في ذلك بل وجدا أنفسهما في سيارة (بوكسي) مع عدد من الطلاب وأفراد الأمن يضعون الأسلحة على رؤوسهم مهددين كل من يحاول الفرار منهم.

تحركت السيارة بسرعة شديدة وكادت أن تلقي بأحد أفراد الامن خارج السيارة. واتجهت إلى الباب الرئيسي للجامعة الذي كان مفتوحًا على مصراعيه أمام حركة السيارات الصغيرة التي تحمل الطلاب الذين أعتُقِلوا.

أُلقى بتمبش وصديقه مبارك في الزنزانة الصغيرة التي تفوح منها روائح قذرة لا يستطيع أن يحتملها أو يبقى فيها لبضعة ثواني. كانت رائحة الدم والبول والكثير من الحشرات مع ضيق المكان والظلام، بالإضافة للضرب المبرح والألفاظ العنصرية التي كان ضباط الأمن يصفونهم بها.

أُقتيد تمبش إلى مكتب التحري والدماء تنزف من أنفه ورأسه جرّاء الضرب وقد تورمت عينه وقدمه اليسرى لدرجة لا يستطيع أن يحركها بشكل طبيعي.

أُقتيد وهو مكبل اليدين وأُدخل إلى المكتب ليقف أمام الضابط الذي استقبله بصفعة على وجهه سائلًا إياه بطريقة استفزازية.

كان ضابط الأمن يرتدي نظارات بلاستيكية سوداء و (لبسة اشتراكية) وصبغ شعره بالصبغة السوداء وتنعيمه (بالأكسجين) ليبدو ناعمًا. ارتدى ساعة فضية على يده اليمنى ويحمل مسدسًا صغيرًا يهدد به المعتقلين.

كانت بشرته ناعمة، عريض المنكبين وعضلات رياضية كبيرة ومقسمة توحي أنه يذهب إلى صالات التدريب ورفع الأثقال، حتى يستطيع أن

يقمع المعتقلين بصورة وحشية تجعلهم يخافون ويتراجعون عما ينادون به من شعارات. وليكسب ود رؤسائه في العمل، كان يضرب بلا رأفة حتى يتقرب إليهم مظهرًا ولاءه لسادته حتى لا يُفصل من العمل خاصةً أنه يتقاضى أجرًا كبيرًا يستطيع به أن يصرف على أسرته. والتباهي بما يملك أمام (ستات الشاي).

أطلق التنظيم الذي تربع على عرش البلاد يد الأجهزة الأمنية حتى تستطيع أن تسكت أصوات المعارضين له. فقد سخر كل موارد البلاد لدعم الأمن ووفر لهم سيارات فارهة ومستوردة ذات الماركات العالمية وجلب ووفر لهم أدوات القمع المتطورة التي تستخدم في التعذيب، وفتح لهم حسابات بالبنوك يصرفون كما يشاؤون، فميزانيتهم مفتوحة لا يسأل عنها أحد. وقد صُرح لهم باغتيال أي شخص وتصفيته حتى إذا كان ينتمي للتنظيم ويشكل مصدر خطر لمصالح التنظيم، لذلك كان تمبش يخشى أن يلقى مصير سابقوه ممن اغتالتهم الأجهزة الأمنية، لكنه كان يطمئن نفسه بأنه حديث في درب السياسة ولن يصيبه أي مكروه خاصة وأنه لا ينتمي لأي تنظيم أو حزب سياسي.

لم تكن أجهزة القضاء قادرة على مقاضاة عناصر الأمن التي تغتال السياسيين خاصة القضاة الذين تم تعينهم في تلك المناصب لولائهم للتنظيم وليس لمقدراتهم وكفاءاتهم العلمية. وكذلك لم تتجرأ الشرطة

على فتح بلاغات ضدهم وحتى المحامين لا يستطيعون المرافعات أمام المحاكم لأنهم مهددون بالقتل في حال تصعيد أي قضية تمس الأمن. لذلك يكتفي الناس بالصمت إلا القلة القليلة التي تقاوم الأجهزة رغم أنها كانت تواجه أبشع صور العنف والتعذيب الذي يطال أسرهم أيضًا، لتركيعهم وإخافتهم للتراجع عن مواقفهم.

استجوب الضابط تمبش بعد أن أذاقه ضربًا وركلًا. كما صب عليه مياه الصرف الصحي وربطه أعلى السقف. ثم سأله عن اسمه.. سكنه.. قبيلته.. ديانته.. لونه السياسي.

- اسمك منو يا ود الحرام أنت؟!

صمت تمبش ولم يفتح فاه. وضربه الضابط بيده في بطنه قائلًا:

- ما داير تتكلم يا عب.. أخليك تتكلم ما على كيفك.

أحضر الضابط العصا الكهربائية وصار يضرب بها تمبش حتى نطق. ضربه على ظهره عدة ضربات ثم سقط على الأرض ووضع الضابط قدمه على رأسه وجلس على الكرسي ليتحري معه.

- اسمك منو؟!

- تمبش.

- ساكن وين؟

- غرب الحارات.
- في ياتو حتة؟!
- الحلة الجديدة.
- جمب وين في الحلة الجديدة؟
- جمب دكان أبو الرخاء.
- أبوك شغال شنو؟
- أبوي الله يرحمه.
- وأمك؟
- ربة منزل.
- وأنت بتشتغل شنو؟
- ما شغال بقرا في الجامعة.
- وبتقرا بشنو؟
- الله كريم. مرات بتشغل طلبة عشان أوفر المصاريف.
- عمرك كم؟!
- 21 سنة.
- شافع صغير وبتباري الكلام الفارغ بتاع الكفار والملحدين ديل؟
- أنت من ياتو قبيلة؟

– نوبة.

سمع الضابط كلمة (نوبة) فنهض من كرسيه ممسكًا بالعصا وضرب بها يده ويردد:

– نوبة.. امم.. التمرد ذاتو.. الليلة طيارتك قامت.

ثم أكمل قائلًا:

– طبعًا مسيحي مش؟

– لا مسلم يا سعادتك.

– تخصصك شنو يا ولد؟

– يا داب أنا في السنة الأولى والليلة أول يوم لي في الجامعة.

– في ياتو كلية طيب؟

– اقتصاد وعلوم سياسية.

– كمان بتدرس سياسة!.. شكلك ما حتطلع من هنا الليلة. موضوعك طويل معانا.

ضربه عدة ضربات على وجهه وهو يدور حوله ويقول:

– نوباوي.. وداير تبقى سياسي.. اممم.. الوداك شنو ركن النقاش؟.. مش المفروض تكون في المحاضرة ولا عامل فيها سياسي؟.. وأنت منظم في ياتو تنظيم؟

- لا والله يا سعادتك.. أنا قبضوني من القاعة من داخل المحاضرة.. وما عارف أي حاجة.. ومابعرف التنظيمات السياسية ذاتا.

- طيب وقت أنت جديد لنج ما أخير ليك تشوف قرايتك بي وين؟!

- والله يا سعادة جاي أقرا وكل أملي أكمل الجامعة واتخرج.

- وريني بطاقتك.

- البطاقات لسة ما طلعت.

تأكد الضابط من صدق تمبش فنادى الجنود ليعيدوه إلى الزنزانة قائلًا لهم:

- الزول جيهو ما تقصرو معاو.. عشان تاني يشوف قرايتو بي وين؟

ضربوه بالعصي وركلوه بالأقدام وأوسعوه ضربًا مبرحًا كما يفعلون مع المعتقلين. كانت دمائه تنزف بلا توقف وعيناه تدمعان. لم يكن تمبش يتوقع أن يُعامل بهذه الطريقة بل كان يتعقد أن حرية الانتماء السياسي والثقافي حق مكفول للجميع، لكنه لم يكن يعرف أن الأنظمة الديكتاتورية تتعامل بهذه الوحشية مع معارضيها بالقمع لترهبهم وتسكتهم. واستمر تمبش يصرخ من الألم:

- ارحمونا يا عالم. أنا ما سويت حاجة.. أنا ما عندي غير القراية.. أنا زول بلدياتكم ليه بتعملو فيني كدا؟..

كلما قالت مبش كلمة ازادوا غضبًا وأمطروه بوابل من الضربات واللكمات، لذلك فضّل أن يصمت حتى لا يُضرب أكثر.

ظل تمبش يتذكر كل كلمة قالها أستاذه تاج السر ويفكر أيضًا في والدته ويتساءل كيف ستكون مع غيابه المفاجئ الذي طال دون أن تعلم اين سيكون؟ بكى بحرقة عندما تُرك وحيدًا بعد أن أُخذ صديقه مبارك للتحري. كان تمبش يتذكر كلمات الضابط:

– يا ود الحرام .. يا عب.. الزيك ديل دايرين يقرو لشنو وشغل النضافة والبلدية والبلاعات منو يشتغلو.. لو ما اشتغلتوها أنتو العبيد.. جاين من الضواحي تعملو لينا تمرد وخوراج وخلايا نائمة في العاصمة، أقسم بالله العظيم نرجعكم محل ما جيتو..

بكى تمبش كثيرًا ومزق ثيابه من شدة الغضب مما جعل الضابط يأمر جنوده بضربه مجددًا حتى أُغمى عليه. فتركوه فاقد للوعي..

***

برغم معاناة تمبش لم تفارق صورة شيماء مخيلته. لم يأتِ عليها غبار النسيان رغم طول الزمان وقذارة ذلك المكان الذي ظل حبيسًا فيه يُعذب ويُهان ويذوق شتى ألوان العذاب. تأتي تلك الذكريات وهو يتذكر ذلك المكان الذي اعتادا أن يلتقيا فيه وظل يشهد أيامهما الجميلة ولقاءاتهما. أيام لا يعرفان فيها سوى الأفراح يرحلان معًا صوب شواطئ الممكن حين كانا يحلمان أحلام المستحيل. يشتاق كثيراً أن يعانق المجد القادم بلهفة وشوق شديدين رغم كآبة الزمن الأليم. وظل ينتظر رحمة ضباط الأمن بعد أن قضى أسبوعًا في المعتقل دون أن يعرف أسباب اعتقاله.

لم ينس تمبش والدته وهو رهن الاعتقال بل ظل يتذكرها في كل لحظة وهي التي تعاني من ارتفاع ضغط الدم وربما يصيبها مكروه للغياب الذي طال دون أن تعرف أسباب غيابه. وصار يدعو الله أن يخرجه من ذلك المكان ليلتقي أمه مجددًا.

لم يكن يخشى تمبش أفراد الأمن رغم أنه شُتم ثم خُون ثم أُطلق عليه كافرًا ملحدًا، لكنه لم يسكت عن الظلم فظل ثابتًا كما علمه أستاذه تاج السر، ألا يسكت في وجه الظالمين ويقف ضد الاستبداد خاصةً استبداد الجهل على العلم واستبداد النفس على العقل. الاستبداد الذي يقلب الحقائق في الأذهان ويزيفها. يتذكر أستاذه حين يقول له: مهما كان

الاستبداد فإنه حتمًا سينتهي عندما يثبت المكافحون في طريق الكفاح يا تمبش.

وُضِع تمبش في المعتقل مقيد الحرية دون أي سبب ما ولم تُوجه إليه أي تهم. زُج به في المعتقل وهو الذي يحمل أحلام والده المرحوم وأمه الحاجة نفيسة التي لا تملك غيره في الحياة.

مرت على ذاكرة تمبش المثل السوداني (ياما في السجن مظاليم) وهو لا يدري لأي سبب أُعتقل حتى يعزل بعيدًا ويُقاد إلى مكان لا يعرفه أو يدخله من قبل في حياته.

مضت ثلاثة أسابيع فقرر الضابط إطلاق سراح الطلاب الذين أُعتقلوا من فناء الجامعة بعد أن أوقفوهم طابورًا في منتصف احدى الليالي مهددًا إياهم بعدم إخبار أي أحد بما جرى لهم وإلا سوف يكون مصيرهم القتل كمن سبقوهم في درب السياسة. ثم رحلوهم بسيارات الأمن وألقوا بهم في الطرقات العامة، كلٌ يُلقى في مكان مختلف عن مكان الآخرين. وجد تمبش نفسه مع صديقه مبارك في شارع النيل وبحثا عن مكان آمن للبقاء فيه إلى حين شروق الشمس ثم التفكير في كيفية الوصول إلى المنزل.

أشرقت الشمس فاستغل الصديقان احدى الشاحنات الكبيرة بعد عناء من الوقوف في الشمس وكانا في كامل الإرهاق والتعب، إلى أن وصلا إلى منزل تمبش غرب الحارات في مساء ذلك اليوم وهما يتألمان من شدة الضرب.

كانت الحاجة في استقبالهما وهي التي لم تترك مكانًا لم تذهب إليه لتبحث عن ابنها. لم تترك أقسام الشرطة والمستشفيات وكل الأماكن التي يمكن أن يتواجد فيها تمبش، لكنها لم تجده إلى أن ظهر في ذلك اليوم ليفاجئها في البيت وهي تفكر في الذهاب في اليوم التالي إلى طارق ليكملا معًا رحلة البحث. دخل تمبش وناداها وظهرت على وجهه علامات الفرح رغم الألم:

- أمي أنتي وين أنا جيت يُمة..

تركت أمه ما كانت تفعله لتستقبل بالأحضان قائلة:

- حمدا لله على السلامة يا ولدي.. كنت وين قلقتني عليك؟.. ومالك كدا؟.. مجرح ومضروب في كم حتة.. سبحان الله.. العمل فيك كدا منو؟.. وكنت وين؟.. ليك كم وعشرين يوم وأنت مافي.. أنا وعمك طارق وأخواتك ديل ما خلينا حتة ما فتشنا فيها..

لم يستطع تمبش الرد على هذه الأسئلة لشوقه الشديد:

- اقعدي يا أمي.. نحكي كل حاجة.. كدي هسة لو في حاجة نأكلا بعداك نحكي ليكي كل شيء برواقة كدي دا..

جلس تمبش مع صديقه مبارك ووضعت أمه الماء على النار ليغلي حتى تضمد جراحهما وهي تحضر في الغداء. أعدت الأم الطعام وقدمته لهما وهي تقول:

- يا ولدي قلت لي في شنو؟.. طمني قلقنا عليك كدي احكي لي.. ما قادرة اقعد.. وما قادرة أصدق أنك جيت.. حاسة أني حاطير من الفرح.. فرح عودتك وجيتك يا ولدي.. بعد العشرين يوم ديل اتعذبت فيها بغيابك.. عيوني ما شافو النوم.

جلست أمه ومعها بقيه أفراد العائلة من أبناء عمومة تمبش فبدأ يحكي لهم:

- يا أمي ناس الأمن المعفنين ديل قبضونا من القاعة.. طلعونا واحد واحد.. جنس ضرب وإهانة وسب دين.. ودونا مكان ريحته عفنة وصغير ودق شديد.. أول مرة أشوف مكان زي دا.. وأكل ذاتو مافي.. وأسلوب زي الزفت وتحقيقات.. وأكعب حاجة البعذب فيك زول أسود زيك.. وأولاد العرب مقعدينهم.. في حتة نضيفة وزول بهبشم مافي.. أما انحنا مع أخوي مبارك دا ورونا الويل وسهر الليل.. يا خي ناس ما عندهم رحمة ما عارف مادينهم كم عشان يعذبوا الناس قدر دا؟..

قاطعه مبارك:

- - ديل ناس يا تمبش؟!.. ديل وحوش.. ياخي يجو ناطين فيك كانو دايرين يأكلوك.. لكن يا تمبش نهاية الظالم بتكون قريبة.. لما احنا نبقى ثابتين ما نتزحزح.

قالت الحاجة نفيسة:

- لكن يا أولادي الكلام ما يمشي ساي إحنا لازم نفتح بلاغ، وضحك تمبش ثم قال:

بلاغ.. بلاغ شنو يا أمـي؟.. ديل فوق القانون.. الظاهر عندهم صلاحيات فوق الناس.. ومن زول كبير.. لانو ما ممكن تقبض زول من مكان العلم بدون أي سبب وتتحقق معاه كانو كاتل ألف نفر.. والمجرمين الحقيقيين لافين في الدنيا دي سارقين حق الناس وعرقم.. وإحنا المساكين ديل يقبضو فينا.. ولكن أصلي ما بسيب الجامعة حاكمل وافضل امشي في نفس الدرب لحدي ما اتخرج.

قاطعته أمه:

- كدي أكل يا ولدي الكلام ما بنتهي.. الناس ديل شكيتهم لله وحق المظلوم ما بروح ساي ودعوتو دايمًا مستجابة.. بس انتو اعملو حسابكم شوية.. أنا خايفة عليكم شديد.. وما بقدر أقعد لو حصل حاجة لا قدر الله.

رد تمبش:

- ما تخافي يا أمي.. حنبقى عشرة.. وعوجة ما بتجينا..

قرر تمبش أن يذهب إلى عمه طارق ليخبره بما جرى له في فترة غيابه. اصطحب معه صديقه مبارك وفكرا أن يمرا بمكان عمل عمه في السوق الكبير قبل أن يصلا إلى منزله.

وبعد وصولهما رحب بهما طارق وأحضر كرسيين ليجلسا. وبعد أن جلسا بدأ طارق يسألهما:

- مالكم يا أولاد الحاصل شنو.. قلبنا الدنيا فوق وتحت ما لقيناكم..

- يا عمي قبضونا من الجامعة.

- أنتو عارفين.. اتوقعت أنو حصلت ليكم حاجة زي دي.. و بحكم معرفتي بجامعتكم دي.. اتوقعت لكن ما حبيت أكلم الحاجة نفيسة عشان ما تقلق لما تسمع موضوع ناس الأمن.. وفضلت أفتش معاها.. والحمد الله جيتو الليلة. كيف إن شاء الله طيبين.

رد تمبش وهو يرتشف من مشروب (الميرندا البرتقالية) الذي قدمه عمه طارق لهما:

- والله يا عمو شوية ألم في الجسم لكن الحمد لله.. أمي عملت لينا مكمدات ونضفت لينا الجروح.. قلنا لحدي باكر نمشي للدكتور نكشف ونعمل صور آشعة للرأس عشان نطمن.

رد طارق وهو يجمع بعض الأغراض:

- لازم.. لازم.. ضروري جدًا تعملوا الحكاية دي.. اشربو البارد خلوني أقفل الدكان ونمشي على البيت تتغدوا وتسلموا على أخوانكم.. وأحكي ليكم البلد دي ماشة كيف؟

أغلق طارق محله واصطحب معه الصديقان وهو يحدثهما في الطريق عن التحديات في الحياة والصعوبات التي تواجه كل من يحاول أن ينطق بالحق. إلى أن وصولوا المنزل وروى لهما حكاياته الأليمة مع أجهزة الأمن وأرشدهما كيف يستطيعان الخروج من المآزق والملاحقات والمطاردات الأمنية المستمرة.

أخبرهما طارق أن الجامعة قد أُغلقت لمدة ثلاثة أشهر بسبب المظاهرات التي شهدتها الجامعة مؤخرًا والتي أدت إلى اعتقالهما.

كانت المظاهرات التي اندلعت في الجامعة بسبب رفض أحزاب التحالف لنتيجة انتخابات إتحاد الطلاب والتي فاز فيها طلاب تنظيم الإصلاح لثلاث أعوام متتالية، الأمر الذي اعتبره تحالف أحزاب اليسار تزوير لإرادة الطلاب الذين سهروا الليالي لحراسة صناديق الاقتراع، إلا أن التنظيم أرسل عناصر الأمن بسياراتهم واقتحموا الجامعة في منتصف الليل واستبدلوا الصناديق بصناديق أخرى بها بطاقات اقتراع ونتائج تؤكد فوز تنظيم الإصلاح بأغلبية ساحقة، رغم تأكد تحالف أحزاب اليسار المعارض من فوزهم الساحق على عدوهم الأول، وقد أدى ذلك إلى انطلاق المظاهرات وعمّت الفوضى أرجاء الجامعة.

لم يكن تمبش يدري بموضوع الانتخابات لذلك دخل المحاضرة وهو متشوق لبدء عامه الدراسي الأول. إلا أن رياح سفنه جاءت عكس

ما يشتهي وقضى أيامه الأولى في المعتقل بدلًا من أن يقضيها في قاعات العلم والدراسة.

قرر الصديقان الانضمام بشكل رسمي لحزب الأصلاء الذي ينتمي إليه طارق وممارسة نشاطهما والدفاع عنه لأنه يخاطب قضاياهما. اتضحت لهما الرؤية بعد أن شرح لهما طارق أهداف ورؤية التنظيم. تفاعلا مع حديثه فوجههما لرئيس أمانة الطلاب بالتنظيم للاتصال به وقراءة دستور التنظيم وملء استمارة العضوية لاستخراج البطاقات والانضمام بشكل رسمي حتى يستطيع الحزب الدفاع عنهما إذا تكرر اعتقالهما أو أصابهما أي أذى.

مضت ثلاثة أشهر وفُتحت أبواب الجامعة مجددًا وعاد الطلاب من مناطقهم المختلفة بعد أن آبوا إليها عند إغلاق الجامعة جراء المظاهرات التي شهدتها والتي أدت إلى إصابة عدد من الطلاب واعتقالهم.

عاد تمبش إلى الجامعة مع رفاقه لكنهم لم يجدوا البروفسير جلال الدين أحمد الذي قدم استقالته لإدارة الجامعة بسبب اقتحام عناصر الأمن القاعة واعتقال الطلاب. وعاد البروفسير إلى بريطانيا ليبقى هناك حتى وفاته.

استطاع تمبش أن يكمل عامه الدراسي الأول رغم ما عاناه من مضايقات مستمرة من أفراد الأمن بعد أن انضم لحزب الأصلاء وترأس تجمع الطلاب بالجامعة ليخلف عبد الله ياسين الذي اغتالته أجهزة الأمن

وهو خارج من المركز العام للحزب بالعاصمة منتصف ليلة السبت من شهر ديسمبر لينضم لقائمة شهداء الحزب الذين قُتلوا بطرق مختلفة لإسكاتهم.

أُنتخب تمبش في انتخابات شهدت منافسة قوية ليصبح بذلك الرئيس السادس لأمانة الطلاب بحزب الأصلاء.

كان تمبش يتذكر باستمرار محبوبته شيماء رغم أن الجامعة كانت مليئة بالحسناوات. كان يكتب في مذكراته قصته مع شيماء التي سافرت وتركته وحيدًا يعاني آلام الفراق. أصبحت حياته خالية وفارغة يعيش في وحدة قاتلة، ولغة الصمت تسود حياته لا يستطيع أن يحكي آلامه لأصدقائه، والألم جاثم على أنقاض فؤاده، حتى الجسد أحسّ بالوحدة ومرارة العيش، الوحدة تقتله والوجع يسكنه، وذكريات الماضي تشغله، ويشعر أن همومه لن تنتهي. وآلامه تخنقنه وما زالت جراح الفراق في قلبه، جراح نازفة، جراح أبكته حتى جفّت كل دموعه، جراح أطفأت فيه رغبته بالاستمرار في الحياة.

الحياة التي سئم منها والتي يراها مملة دون وجود شيماء بجانبه رغم أنه كان يسعى لأن يحقق حلمه في الحياة إلا أن أيامه كان يسكنها الصمت والعذاب، وتغمرها ظلمة الليل، ولا تعرف معنى الألوان، أيام غاب فيها القمر، ولم يعد يتقن سوى لغة البكاء، أيام تحتضر، أيام كالأشباح، أيام انقطعت فيها الأنفاس، وتملّكه فيها اليأس والضياع. وكأن الأيام تحكم

عليه بموت أحاسيسه، وكأن الدموع تأسره في أرض الآهات ولم يعد يعرف أين سيمكث وينتظر عودة شيماء وبداخله حلم يخشى أن يضيع على صفحات السنين يشعر أنّ وحدته ستقتل أحاسيسه في هذه الحياة، كل ما بداخله تحطّم وتبعثر، أصبح كأشلاء تناثرت فوق صفحات الماضي ربما الخوف من المجهول بات يسكنه، وتلك الدمعات تأسره لكنه رغم ذلك كان متمسك ببصيص أمل أن يرى محبوبته مجددًا وإن طال غيابها.

كان تمبش في قمة العذاب يشتاق لمحبوبته ولا يدري في أي يوم سيراها بعد أن ودعها بدموع عينيه وقلبه يصرخ لحبه وحنينه. كان يجلس يومًا وحيدًا يحاول أن يستجمع حوله ظلال أيام جميلة عاشاها مع من يحب فحضرت مشاعر الألم والوحشة التي فرقت بينهما وحاول أن يجمع في دفاتر أوراقه كل الكلمات الجميلة التي سمعها من شيماء، وكل الكلمات الصادقة التي قالتها له.

ظل تمبش ينتظر بزوغ شمس اللقاء ليشكو لها ألم البُعاد فقد كان شعورًا مؤلمًا أن يحاول الظهور بابتسامة دائِمة على وجهَه في حين ظل يفتقدها في قلبه. كان يشعر بضيق وكأن المكان من حوله يضيق.

مرت السنوات كلمح البصر وأكمل تمبش سنواته الأربعة في الجامعة وتخرج فيها حاصلًا على درجة البكالوريوس في الاقتصاد والعلوم السياسية وأُقيم حفل كبير في الجامعة على شرف التخرج وألقى تمبش كلمة الخريجين بعد أن اختاره زملاؤه ليلقي الكلمة لتفوقه ومشاركاته المتعددة مع المنتديات الثقافية والروابط الاجتماعية والتنظيمات السياسية ولامتلاكه ناصية الحديث، لذلك أُخِتير من بين أقرانه ليلقي كلمة الخريجين، وجاءت كلمته كما توقع زملائه قوية مؤثرة نالت رضا الحاضرين. تحدث تمبش أمام الجمع الغفير بعد أن اعتلى المنصة يرتدي «الروب الاسود» والقبعة التي يضعها الخريجون على رؤوسهم تحدث عن الحرية قائلًا:

- لا يمكن أن تتحدث عن الحرية وأنت مكبّل بقيود المنطق والفقر والعجز والظلم والعبودية يجب أن نتحرر منها. فإن الإنسان يولد حرًا ويجب أن يبقى حرًا يتحرر من سلاسل الاستعباد وأن طريق الاستقلال يجب أن يبدأ من الوعي والمعرفة. ويجب ألا ننسى بأن نتسلح بقوة الإرادة والعزيمة والإصرار. وأن الحرية قيمة عظيمة ولا يقاتل من أجلها إلا العظماء وإني متيقن أن أبناء جيلي سوف يقاتلون من أجل الحرية وأن شعبنا ينتظرنهم لأنهم أقوياء بالعلم والبحث المستمرعن الحقيقة.

لم ينس تمبش أن يهنئ زملائه لما بذلوه من جهود طيلة أربعة سنوات رغم مرارات الأيام التي عاشوها بين المعتقلات وأقسام الشرطة وكان يقول:

- هذه الخطوة التي أنجزتموها في دروب الحياة، تلك المتوّجة بالطموح والمكلّلة بالكفاح، والتي وصلت بكم في نهاية المطاف إلى درب النجاح تجعلني أفتخر بكم دومًا أصدقائي الأوفياء فهنيئًا لكم وتمنياتنا للجميع بدوام التقدم والنجاح.

أنهى تمبش كلمته شاكرًا والدته وأمهات أصدقائه اللائي تعبن من أجلهم وكان يبكي حين أكمل كلمته بعد أن اعتلت أمه المنصة لتحتضنه بشدة ودموعها تنزل وكأنها تريد أن تقول:

- كنت أنتظر يوم نجاحك في كلّ لحظة ابني العزيز وها هو تاج العلم قد تُوجت به، وقد نلت ما ترجوه من تعب الليالي، تستحق أروع من ذلك.

أمسك تمبش بها وغادرا المنصة وسط تصفيق حار وبعدها غنت فرقة الأمل أغنيات جميلة تفاعل معها الجمهور خاصة أغنية الفنان الراحل مصطفى سيد أحمد «الطيور»

انطلقت الزغاريد والأهازيج حين وصلت الفرقة إلى مقطع الأغنية

والله باكر يا حليوة

لما اطالفنا السمر

يبقوا أفراحنا البنمسح بيها أحزان الزمن

نمشي في كل الدروب الواسعة ديك

والرواكيب الصغيرة تبقى أكبر من مدن

واختتم الحفل والجميع في فرح كبير ينشدون الأغنيات ويتطلعون لمستقبل أفضل يغير واقعهم.

***

تخرّج تمبش وحقق حلمه بإكمال الدراسة في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية وبدأ يبحث عن عمل بين المؤسسات الحكومية والشركات والمصانع، لكنه اصطدم بواقع مرير لم يكن يتوقعه بأن التعيين في أي مؤسسة حكومية يتطلب توافر شروط معينة وضعها الحزب الذي يحكم البلاد ليجد أعضاؤه حظهم في العمل والتمكين. فباتت أغلب المؤسسات لا تراعي للمؤهلات العلمية أو الكفاءات وإنما الولاء الحزبي لتنظيم الإصلاح الذي كان يتحكم في مفاصل الأمور في البلاد. فقد كان تمبش معروفًا بمعارضته للحكومة، لذلك لم يجد فرصة للعمل ولم يحصل عليه بالرغم من رغبته وبحثه المستمر عن فرصة عمل لكن دون فائدة، مما جعله يفكر في الاغتراب والبحث عن فرص أفضل في بلد آخر. واضطر تمبش أن يعود إلى عمله السابق في البناء مع معلمه جلال بعد أن تركه في الفترة الأخيرة للتركيز في الدراسة والامتحانات النهائية.

عاد تمبش إلى عمله وبدأ يعمل باجتهاد لتوفير بعض المبالغ التي تعينه للسفر للخارج رغم أن أمه لم تكن تحبذ أن يغادر تمبش البلاد ليتركها وحيدة بعد أن توفى زوجها.

كانت البطالة من أكثر الظواهر الاقتصادية شيوعًا في جميع البلاد ولم تفكر الحكومة في حل هذه المعضلة التي باتت تؤرق الدولة بعد ارتفاع نسبة العاطلين عن العمل، فضلًا عن وضع الاقتصاد المتقلّب، وعدم

وجود تناسب بين عدد الأفراد وأعداد الوظائف، ساهم في انتشار معدل البطالة بدرجةٍ كبيرة مما جعل الشباب يفكرون في الاغتراب للبحث عن سُبل أُخرى لكسب العيش.

***

ظلت ذكريات تمبش بمحبوبته شيماء محفورةً داخله تذهبُ به لعالم جميل يتذكّر فيه أجمل اللحظات والمؤلمة منها والتي كانت لها رونق خاص بقلبه، فقد جمعته الدنيا بها وبأشخاص آخرون مروا على حياته بأماكن يعتبرهم بداية مهمّة في مشوار حياته وكان من بينهم أستاذه الذي يحبه تاج السر الذي غاب عنه الفترة الأخيرة وكلما ذهب تمبش إلى منزله لا يجده ولم يجب أفراد أسرته على أسئلتة عن غياب أستاذه لكنه كان يأمل أن يعود من جديد.

بينما كان تمبش في غرفته يرتب بعض الاشياء دخلت والدته وهي تبكي بشدة ودموع تنزلها على خديها بلا توقف وألم يعتصرها ولا ينتهي ولا تستطيع أن تتحدث وتمبش يقول لها:

- مالك يا أمي في شنو؟.. خير طمنيني.. يا يُمة عليك الله قولي مالك؟..

فلم تجب والدته وظلت تجهش بالبكاء إلى أن جاء صديق تمبش قدورة وهو يبكي هو الآخر وينادي على تمبش:

- تمبش البس بسرعة نمشي المستشفى قالوا أستاذ تاج السر في الإنعاش.. جابوه ناس الأمن أصلو غيابه الشهر الفات أنا كنت متأكد أنو معتقل..

- يلا نمرق بسرعة نلحقوا يلا نمشي.

خرج الصديقان يسرعان الخطى للاطمئنان على صحة الأستاذ. كانت لحظات قاسية وصعبة شعرا فيها بالحزن العميق وكأنه كامنٌ في داخلهما، ألم عميق عاشاه وهما في طريقهما ووجوههما غارقة بين الدموع والحزن الشديد. لم يكونا يدركان أن أستاذهما تاج السر قد عُذِب في المعتقل.

وصل الصديقان المستشفى الذي كان يرقد فيه الأستاذ تاج السر ووجدا أعدادًا كبيرة من الناس متجمهرين أمام بوابة المستشفى يبكون ولا يستطيعون الدخول بعد أن منعهم أفراد الشرطة. وفي تلك اللحظة كان أستاذ تاج السر يودعهم وهم لا يعرفون أنه سيغادر دنياهم بعد أن علّم أبناءهم وقدّم لهم الكثير طيلة فترة حياته والتي اتسم فيها بالتواضع والتواصل الاجتماعي الجيد مع الجميع لا يفرق بينهم. لذلك أحبوه كثيرًا.

أصبح كل شيء يمر ببطءٍ، الدّقائق ساكنة والساعات واقفة بدأ الناس يفقدون الأمل بعد كان الأطباء يتحدثون فيما بينهم بمصطلحات الطب باللغة الانجليزية مما جعل قدورة يقول لتمبش:

– تمبش أخوي.. صدقني مشية الدكاترة من قبيل ما مطمانني خالص.. وبعدين مما يتكلموا بالانجليزي أصلو ما بطمن خالص. ويطنطنو قلبي ما برتاح خالص.. الله يعديها على خير والأستاذ يقوم بالسلامة..

لم يجيبه تمبش وظل صامتًا والدموع تنهمر من عيناه رغم أنه حاول إخفاءها حتى لا تتأثر زوجة أستاذه رويدا التي كانت تقف بالقرب منه.

ظل تمبش واقفًا يمسك بإحدى الأعمدة في صالة انتظار الزوار وهو في غاية الحزن يشاهد الأستاذ يصارع الألم على فراش المرض من خلال زجاج النافذة.

استرجع تمبش ذكرياته مع أستاذه كأنما الأيام تريد أن تقول له إنها لحظات النهاية مع معلمه وكأنما موعد الرحيل قد حان دون أن يكملا معًا رحلة النضال. تذكره من قلبه ووجدانه بكل خيره وسيرته الطيبة وما زال قلبه ينزف ألمًا ووجعًا. وتقدم قدورة وأمسك بتمبش وهو يقول له:

- شد حيلك يازول.. الأستاذ إن شاء الله حيتعافى يبقى كويس ونرجع تاني مع بعض.. وبعدين امسك دموعك دي أنت ما شايف مرتو متصبرة كيف.

وفيما هما يتحدثان خرج الطبيب ليخبرهما بخبرٍ لم يتمناه أبدًا وهو رحيل الأستاذ تاج السر متأثر بضربه في المعتقل.

بدأ الجميع بالبكاء والصراخ لفراق المعلم الذي علم أجيالًا وقدّم الكثير لخدمة المجتمع. لم يك تمبش يصدق ذلك كيف رحل تاج السر بهذه السرعة إذ أغلق الأستاذ برحيله جميع الأبواب في وجهه معلنًا بداية

فصل الرحيل، ولم يعد هناك أمل ولا رجاء بالبقاء، وألقى بمفتاح الأمل في بحر من النسيان. تركهم يبكون دون توقف. رحل والدهم الثاني الذي انتظروه أن يتعافى ويعود ليحدثهم ويسمعوه مجددًا ويخاطبهم بكلماته، لكنها كانت النهاية الأليمة التي لم يتمنوها أبدًا أن يخاطبوه وكأنه أمامهم، لكنه غائب بعد أن انتظروا سماع صوته الحنون.

تلقّى تمبش صدمة أخرى بفاجعة رحيل أستاذه بعد أن رحل والده ود البلولة تاركًا فراغًا عريضًا في حياته، وبرحيلهما لم يتذوق طعم السعادة. وبات الحزن يخيم عليهم جميعًا برحيل الأستاذ تاج السر الذي لم يكن أبًا فقط، بل كان الأب الحنون الذي يخاف عليهم والأخ الذي كان يعطف عليهم والصديق الذي كان يشاركهم، وبعد فاجعة رحيله أصبح كل شيء بعيدًا. كان فراقه مؤلمًا جدًا للأهل والأصدقاء وتلاميذه الذين أفتقدوه بشدة ليست لها نهاية.

شُيع جثمان الأستاذ تاج السر الذي وارى الثرى في مقابر الحي بالقرب من المدرسة. لم يغيب أحد عن موكب تشييع الجثمان المهيب فقد حضر الأهل الذين جاءوا من مسافات بعيدة وأقاليم مختلفة وتلاميذه وطلابه وزملاؤه ورفاق دربه وزملائه بالحزب، كانوا يتقدمون الصفوف وهم يرددون «ستبقى فينا يا بطل.. تاج السر ستبقى رغم الرحيل المر». بعد أن أصدروا بيانًا للتعزية أدانوا فيه مقتل الأستاذ وتوعدوا بملاحقة أفراد جهاز الأمن الذين تسببوا في موته رغم اقتناعهم بعدم نزاهة القضاء.

أُقيمت سرادق العزاء وجاء الناس من كل حدبٍ وصوب يعزون في الفقد الجلل وتبنّى حزب الأصلاء أبنائه الثلاثة جون ونعمات ونجاة. وأما تمبش فقد وعد الحضور أن يبني مدرسة كبيرة ويُنشىء جمعية خيرية تحمل اسم أستاذه تاج السر، وأن يستمر في طريق النضال كما أوصاه وأن يثابر في الحياة من أجل أن يغير الواقع المذري الذي يعيشه المجتمع.

كانت الأحزان والأيام عصية على تمبش يعيش فراق محبوبته شيماء وأصبح كطائرٍ مهيض الجناح لم يكن نفس الطائر الذي ظل يحلم أن يطير بعيدًا قبل أن يقيد بقيود انتظار عودة محبوبته. وفاجعتيّ رحيل والده وأستاذه تاج السر المريرتين اللتان أثرتا على حياته، وبدأ يعيد تشكيل أموره من جديد.

بات يبحثُ دومًا عن آخر ليشاركه غيابهم ويشاركه الفرح والحزن الذي فرضته قسوة الأيام عليه، التي أصبحت مليئة بالحزن والوحدة.

لقد قضى أيامه حزينًا ينتابه حزنٌ عميقٌ، الحزن الذي لا يملك أي جواب له ولدهشته من الظروف التي يمر بها في حياته. وبالرغم من نوبات الحزن المباغتة والمستمرة لكنه لم يستسلم لظروفه بل جعل الحزن يمضي دون أن يتوقف في محطاته، من أجل أن تعبر عجلة حياته ما تبقّى من طُرقات لم يمشيها بعد.

***

مرت سبعة أعوام والتواصل منقطع بين تمبش ومحبوبته شيماء. وبات تمبش يعيش على أحلام اللقاء المنتظر بعد أن حمل حقائب أشواقه واتجه صوب مرافئ الأمل وبات ينتظر عودتها مجددًا ليكملا معًا رحلة حبهما.

منذ أن سافرت شيماء وتركته بمفرده لم يفكر تمبش في أي من الفتيات رغم أن كثيرات حاولن التقرّب منه وأن يحظين بحبه، لكنه كان وفيًا لمحبوبته رغم طول الغياب.

كان تمبش وفيًا لا يخون حبيبته ملتزمًا بقيمه ومبادئه التي علمها له أستاذه تاج السر ألا يخون ويبقى وفيًا وإن كانت تلك هي لحظاته الأخيرة في حياته.

أهدى تمبش محبوبته كل شيء يملكه حبه وقلبه ووقته وعمره وحتى أملاكه التي لا تتعدى غرفته الصغيرة التي عاشا فيها أجمل لحظات حباهما والتي بها بعض الأشياء القديمة من آثاثات بالية وكتب وأوراق وأشياء كثيرة مبعثرة.

كانت مربوطة بأعلى غرفته التي عاش فيها أجمل أيامه منذ صباه، قطعة كبيرة لتغطي الحصير وفتحات السقف ولتغطي الخرائط المرسومة بفعل الأمطار.

كانت كل أملاكه لا تتعدى الأحلام التي كتبها على ورقة بخط يده ووضعها على الحائط حتى يتذكرها كلما رفع عينيه إلى أعلى.

أصبحت الأيام تمضي بسرعة دون أخبار عن عودة شيماء.

كان تمبش يكتب على مذكراته عن حبهما ولقاءاتهما وتفاصيل عشقهما. ويتذكرها بوجهها البشوش وبسمتها وعينيها وطولها الفارع وخصرها الجميل ونهديها الكبيرتين ذي الحلمات الصغيرة.

كتب تمبش حتى جفّ حبر قلمه وسالت دموعه على أوراقه شوقًا وحبًا وقد خيم عليه الحزن بعد أن أحسّ أن الأيام تبعده ونيران الأشواق تحرق دواخله. ولا يدري متى سياتي موعد لقائه المرتقب. لتأتي بجمالها وبالذات الروعة التي تركته بها يوم مغادرتها.

مرت الليالي ولم ينس تمبش ليلة الافتراق مع محبوبته رغم أنه قد سئم من متاعب الحياة لكنه كان يعيش على أمل اللقاء الذي سينسيه أحزان الغياب الذي طال.

جعلت تلك الظروف التي مر بها تمبش أن يفكر في السفر والاغتراب رغم حبه للوطن الذي نشأ فيه وترعرع على حبه وأحبه منذُ الصغر. فقد كان دائمًا يقدم الوطن بإخلاص واجتهاد ومثابرة، يدافع عنه ويحميه بعد أن سئم من الحياة ولأنه كان يبحث دائمًا عن الفرص لمساعدة الآخرين

وقد ملّ أيضًا من الملاحقات المستمرة من أجهزة الأمن التي لا تترصد إلا الناشطين في الأحزاب السياسية، والذين ينتمون إلى أثنيات محددة وتنادي بأفكار لا يحبذها الحاكمون. ولأن تمبش كان دومًا يتطلع لأن يرى العالم ويفهم كيف يفكرالآخرون رغم أنه كان يقرأ في المجلات والكتب وعرف الكثير عن العالم و لتفتح أمامه آفاقًا لم تكن تخطر على باله، لهذا قرر أن يسافر وليبحث عن فرص جديدة في الحياة وعن المحبوبة شيماء.

***

ضاقت الحياة بالناس وارتفعت أسعار السلع الغذائية وانعدمت الأدوية المنقذة للحياة وتفشّت الأمراض والأوبئة، وبات الناس يعيشون أوضاعًا اقتصادية صعبة وانهارت الحياة نتيجة الصرف الباذخ للدولة على الأجهزة الأمنية والجيش للدفع بهم في الحرب التي تدور رحاها في أطراف البلاد. وتوقفت عجلتي التنمية والإنتاج ولا يوجد ما يأكله الناس وعمّ البلاد جفاف شبيهة بالمجاعة والتي لا تريد الحكومة أن تعلنها رغم أنها كانت تتلقى مساعدات غذائية من بلدانٍ تصفها بالكافرة.

ورأى الناس ضرورة مقاطعة الانتخابات التي كان يدعو لها التنظيم الإسلامي لأنهم لا يرون أي فائدة من الذهاب إلى صناديق الاقتراع لعملية معروف نتائجها مسبقًا، ولن تغير شيئًا وهي فوز التنظيم الإسلامي وسيبقى الحال على ما هو عليه إن ذهب الناس أو لم يذهبوا، حتمًا سيصل أولئك اللصوص إلى كراسيهم كالعادة بل ستكون المشاركة هدية كبرى لهم. لذلك قرر حزب الأصلاء مقاطعة الانتخابات وإطلاق حملة المقاطعة لتتزامن مع حملات حزب الإصلاح الإسلامي الذي بدأ يحشد قواعده للمشاركة ويقدم مغريات لجذب الناس للتصويت.

استضاف الطلاب تمبش بحكم منصبه القيادي في الحزب في منبرهم اليومي بالجامعة لحشد الطلاب لمقاطعة الانتخابات وكان حاضرًا في الموعد، وجاء ليخاطبهم وبدأ يذكر ويعرض فساد تنظيم الإصلاح بالأرقام

ويوضح للطلاب خطورة المشاركة في الانتخابات التي وصفها بأنها صورية لن تغير واقع الحال. فالأفضل مقاطعتها والعمل على شل حركة التنظيم وذهب أكثر من ذلك ليدعو لمظاهرات عارمة تجوب البلاد تطالب بإسقاط الحكومة التي تسببت في إفقار البلاد وتشريد العباد.

كانت أجهزة الأمن تترصده وتتبع خطواته وتعرف جيدًا أنه سيقضي يومه. فقد كان ذلك اليوم حافلًا بالطلاب الذي جاءوا من جامعات مختلفة للاستماع لندوة حزب الأصلاء الذي يتزعم تحالف المعارضة.

أعدت الأجهزة عدتها واقتحمت الجامعة وتسلل بعض أفرادها إلى وسط الطلاب المتجمهرين أمام منصات المخاطبة التي ضجت بها الجامعة، حيث مكبرات الصوت منتشرة في كل مكان ولا تستطيع أن تسمع لأحدهم. وأطلق طلاب الإصلاح الإسلامي حملتهم الانتخابية والتي أسموها «نصرة الشريعة» وشعارها الرمزي «السيف» الذي أُعد للكفار ولأعداء الأمة.

اشتغلت مكبرات الصوت وكانت أغاني الجهاد حاضرة بقوة، وكانت حملة طلاب تحالف اليسار تحمل اسم «نقاوم لا نساوم» وشعارهم «صورة أسد» وأصدرت الروابط الاجتماعية والثقافية بياناتها، وأقامت مخاطباتها متحدثة عن سوء إدارة الجامعة وأوضاع الطلاب وقضايا الحروب التي كانت مشتعلة في بقاع عدة من البلاد.

توزع أفراد الأمن في أماكن مختلفة قاصدين العناصر البارزة من الطلاب والشخصيات السياسية التي جاءت لتحريض الطلاب ضد التنظيم الإسلامي. وبينما كانت المخاطبات السياسية مستمرة والطلاب يتفاعلون معها أكملت عناصر الأمن خطتها الرامية لاغتيال تمبش وإنهاء أسطورته.

كان تمبش ذائع الصيت كأحد أبرز رموز حزب الأصلاء وقياداته الشبابية التي يعول عليها الحزب لمقارعة الأحزاب الأخرى، لأنه كان معروفًا بذكائه وحنكته السياسية.

اعتلى تمبش المنصة ليلقي خطابًا لطلاب الحزب بالجامعة فقام أحد ضباط الأمن بإطلاق النار على صدره بعد أن تسلل وسط الطلاب متنكرًا ليضع حدًا لحياته وزعامته وأحلامه التي ظل يحلم بها منذ نعومة أظافره، سقط تمبش على المنصة والدم يسيل، وصمت الجميع مندهشون مما جرى ولحق الطلاب الغاضبون بالقاتل وقبضوا عليه في البوابة الرئيسية بعد أن حاول أن يهرب وربطوه واقتادوه إلى بسط الأمن الشامل، وانطلقت مظاهرة حاشدة بالجامعة والطلاب يرددون «مقتل طالب مقتل أمة.. مقتل طالب مقتل أمة « «الدم الدم لكلاب الأمن.. القصاص.. القصاص..»

وهكذا من شعارات وهم يحملون تمبش ودماؤه تنزف وتلطخت ثيابهم بالدماء، وجاءت عربة إسعاف ونقلت تمبش إلى المستشفى لكنه فارق الحياة في الطريق إلى المستشفى.

اشتبك الطلاب في الجامعة مع طلاب حزب الإصلاح الإسلامي المدعوم بالشرطة وأجهزة الأمن وجُرح عدد وأُصيب آخرون بجروح بالغة، وحُرقت الجامعة وتكرر مشهد الدم مجددًا في الجامعة التي لا تهدأ.

أُغتيل تمبش في مطلع الألفية الثانية بعد أن قضى عمره مناضلًا مكافحًا لا يشق له غبار. لم يك مجهولًا سبب اغتياله لأنه كان شريفًا عزم على محاربة الفساد بصدق وتطبيق العدالة وإنصاف المظلومين والمقهورين والكادحين من الشعب. فقد كانت غايته التي تمناها دائمًا أن يرى وطنًا حرًا ديمقراطيًا تسود فيه العدالة والمساواة والحرية والكرامة الإنسانية، إلا أن أمنياته لم تكن سوى أحلامًا عاشاها ولم تسعفه الأيام لتحقيقها.

***

أُقيم تأبين كبير أمام منزل تمبش وعدد الحاضرين مآثر الفقيد واصفين إياه بكلمات قوية ومؤثرة فقد كان تمبش معروفًا بشخصيته القوية والتي لها قدرة على إقناع الخصوم. نتيجة الإطّلاع الكبير وتقربه من كبار الأساتذة الذين شكّلوا شخصيته. كان يتحدث بكلمات تجعل أصدقائه يفكرون فيها بتمعنٍ.. أثر فيهم وغيرهم وجعلهم يغيرون أسلوب حياتهم التي كانوا يقضونها بين الحفلات والأندية ودور السينما دون أي هدف للحياة، كان قائدًا ذو كاريزما مختلفة يتميز بالهدوء والسكون، وكانت شخصيته تنمو بخوض التجارب في معترك الحياة. تحلّى بالشجاعة وقوة الشخصية، والصبر على الألم، وعُرف بكفاحه المستمر وازداد إرادة وصلابة وإصرار وأصبح قائدًا من طرازٍ فريد. خطى خطواته الأولى نحو التحرر والقوة منذ أن كان طالبًا بالمدارس الثانوية يرفض الظلم. واجه الصعاب وأصبح في النهاية بطلًا جسورًا سيرته على كل لسان.

حضر التأبين أحزاب اليسار وزملاؤه والأهل، وكانت القضية تمضي في مسارها القانوني إلا أن القضاء لم يكن نزيهًا لمحاكمة القاتل الذي تم تهريبه من السجن بواسطة أفراد ليهرب خارج البلاد، وتُطوى صفحة القضية دون أن تكتمل المحاكمة التي استمرت أكثر من عام دون نتائج مُرضية لأسرة المقتول، بعد أن هددت أجهزة الأمن المحامي باب الله

خضر الذي كان يدافع عن المجني عليه بألا يفتح القضية مرة أخرى وإلا سيكون مصيره القتل.

كان تمبش الأمل في حياة أسرته فهو يبعث فيهم الفرح والطمأنينة، يُحفّزهم على الصمود والمثابرة وعدم الاستسلام، يُبعدهم عن الكسل والكآبة والإحباط، كان فتى جميلًا يبعث الأمل في نفوسهم، ويزيد حياتهم روعةً وجمالًا. كانت رغبته في تحقيق النجاح هي سر نجاحه في الحياة التي قاتل فيها بقوة حتى النهاية.

رغم أنه مرّ بمحطاتٍ عديدة أتعبته محاولة أن تنال منه ليفشل ويُصاب باليأس والإحباط لكي لا يستمر لكنه لم يستسلم.

عاش بينهم يكافح ويثابر من أجل حياة أفضل حلم بها رغم الفقر المدقع الذي كان يعيشه. ظلّ يبحث عن الأفضل مجتهدًا في دراسته متعبًا وشاقًا طريقه رغم «العوارض» التي حاولت أن تعترض طريقه، ولكنه تمسّك بخيوط الأمل حتى لحظة اغتياله، كان يعيش معهم لكي يرسم ابتسامة ويمسح دمعة ويخفّف ألمًا. رَحل وقد بعث فيهم الأمل مع أُفق الفجر الجديد ليلقي في نفوسهم فيض من الأمل والسعادة.

***

مرت تلك الأحداث دون حضور شيماء التي وردت أخبار عنها تفيد أنها أُرغمت على الزواج من أحد رجال الأعمال المشهورين حتى لا تعود إلى البلاد لتلتقي بتمبش «الود الفقير» كما كانت تصفه والدة شيماء التي لم تكن تقبل البتة أن تتزوج ابنتها بشابٍ فقيرٍ لا يملك أي شيء. كانت تحلم دومًا بذوي السلطة والجاه رغم إنها لم تكن تنتمي لذات الطبقة ولا تملك شيء يذكر، لذلك لم تتردد أن تزوج ابنتها لرجل الأعمال الذي لم يرتبط بها أو يعيشا معًا في علاقة حبٍ، بل ذُهِلَ بجمالها لذا تزوج بها لتصبح شيماء الزوجة الرابعة إذ كان متزوجًا بثلاثة نساء من جنسيات مختلفة وطلقهن بعد أن أنجب منهن بنات.

وقد تحولت حياة شيماء إلى جحيم لا يُطاق بعد أن وضعت ابنها البكر الذي أسمته «مناضل» لتتذكر به عشيقها الذي حُرمت منه لسنين عدة وهي لا تدري أين يكون.

كان تمبش متروكًا كشيء على رصيف انتظار طويل يخفق في بدنه توِّق لرؤياها ويندم في أحايين كثيرة لأنّه تركها تمضي دون أن يخطبها أو يتقدم إليها. كان انتظار تمبش محنة قاسية ولحظات صعبة تمزّقت فيه أعضاء نفسه دون أن يرى محبوبته ويعانقها من جديد.

ومع مرور هذه الأحداث لم تتوقف دموع الناس في كل لحظة يتذكرون فيها البطل الذي أُغتيل دون أن يحقق ما حلم به. أُغتيل الابن الوحيد لأسرته التي كانت تعول عليه وأصبحت والدته وحيدة بعد أن فقدت زوجها وابنها الذي كان حلمًا أخيرًا لها وللأسرة والأهل والأصدقاء والزملاء وحزب الأصلاء. وتبدد الحلم الأخير.

تمت بحمد الله

***

الكاتب في سطور:

سمعان محجوب أبوطرين

- من مواليد 7 ديسمبر 1988م – الحاج يوسف « كرتون بارونا «
- الحالة الاجتماعية : متزوج من عائشة جبريل وأب لطفلة « آمال «
- مدرسة الأساس: مدرسة SCOC ثم مدرسة البرهان الأساسية ذات الخصوصية.
- الثانوية: ود السائح الثانوية بنين.
- الجامعة : حصل على البكالوريوس من جامعة جوبا كلية الآداب والعلوم الإنسانية – قسم الإعلام 2010م.
- حصل على درجة الماجستير المصغر في مجال العلاقات الدبلوماسية والتعاون الدولي. من الاتحاد الأفرو آسيوي للقانون الدولي وتسوية المنازعات.
- باحث في مجال العلاقات الدبلوماسية.
- حصل على العديد من الشهادات العلمية في عدد من المجالات.

- يعمل مدرسًا بعدد من مدارس الأساس والثانوي منذ 2006 حتى تاريخه.

- إعلامي وكاتب صحفي بعدد من الصحف السودانية منذ 2010 حتى تاريخه.

- شاعر ومؤلف له العديد من دواوين الشعر والقصص القصيرة والروايات التي لم تر النور

منها ديوان «عُذراً يا وطن» «ورواية» «رفيقتي البعيدة» وقصة «بريق السلطة يصيب ود الناس»

- ناشط بالمجتمع المدني وبالعمل السياسي.

- ساهم في تأسيس العديد من المنابر الإعلامية ومراكز الدراسات والجمعيات والمبادرات الخيرية والصحف الألكترونية.

- شارك في العديد من الفعاليات والمحافل المحلية والإقليمية والدولية.